البؤساء

لـ.. فيكتور هوجو

الجزء الأول

obeikandl.com

إلى الأستاذ الإمام

إنكَ مَوْئِلُ البائسِ ومرجعُ اليائسِ، وهذا الكتابُ - أيدك الله - قد ألمَّ بعيش البائسينَ وحياة اليائسين، وضعه صاحبُه تذكرة لولاة الأمور، وسمّاه «كتاب البؤساء»، وجعله بيتًا لهذه الكلمة الجامعة وتلك الحكمةِ البالغة «الرحْمةُ فوقَ العَدْلِ».

وقد عَنَيْتُ بتعريبهِ لما بين عَيْشِي وعيش أولئك البائسين من صلة النسب، وتصرفتُ فيه بعض التصرف، واختصرتُ بعض الاختصار، ورأيتُ أن أرفعه إلى مقامكَ الأسنى، ورأيكَ الأعلى لأجمعَ في ذلك بين خِلالٍ ثلاث:

- أولها: التيمنُ باسْمِكَ والتشرفُ بالانتماء إليك.
- وثانيها: ارتياح النفسِ وسرور اليَراعِ برفع ذلك الكتاب إلى الرجل الذي يعرف مهرَ الكلام ومقدار كدِّ الأفهام.
- وثالثها: امتداد الصلةِ بين الحكمةِ الغربية والحكمة الشرقية بإهداءِ ما وضعَهُ حكيمُ المغرب إلى حكيم المشرق.

فليتقدمْ سيدي إلى فتاهُ بقبولهِ، واللهَ المسئولُ أن يحفظَهُ للدنيا والدين، وأن يساعدني على إتمام تعريبهِ للقارئين.

obeikandi.com

مقدمة

كلمةٌ في التَّعْريب

هذا كتاب البؤساء، وهو خير ما أُخرج للناس في هذا العهد، وضَعَهُ صاحبُهُ وهو بائسٌ، وعرَّبهُ معرِّبُهُ وهُوَ بائسٌ، فجاءَ الأصْلُ والتعريبُ كالحسناء وخيالها في المرْآة، وضعه نابغةُ شعراء الغرب وهو في منفاه، وعَرَّبهُ كاتبُ هذه الأسطر وهو في بَلْوَاهُ.

ولولا أنني أشربُ بالكأس التي كان يشربُ بها ذلك الرجل العظيم، لما وصلَ مبلغ علمِي إلى مبلغ علمه، ولما سبحَ يراعي[1] في قطرة من سيول قلمه، ولو أن لي قلمًا من أعواد أشجار الجنَة، وصحيفة من صحف إبراهيم وموسى، وقد تلقتني البلاغة من كل جهَة بوجهها، فسموتُ إلى لُبَاب مصَاصها[2] وأخذت منها حاجتي لما حدَّثتني النفسُ بتعريبِ ذلك الكتاب، لولا اتحادُنا في الألم وتشابهَنا في الشقاء.

فلقد كنتُ أنظر فيه نظرة المنَجِّم في الميقات، وأستوزع[3] الله بيان تلك المعجزات، حتى إذا نفذ الفكر إلى ما وراء سطوره، واهتدى الخاطر إلى مكامن حكمه، دعوتُ إليَّ أمّ اللغات[4] وعملت على التوفيق بين هذه الغادة الشرقية وتلك الفتاة الغربية، وعمدتُ إلى مَدّ صلة النسب بين الغايتين اللتين انتهتْ إليهما بلاغةُ العرب وبلاغةُ الإفرنج، فإذا شَمستْ إحداهما وازورّ جانبُها أغريتُ بها سلطانَ العقل، فلا يزال بها يُرَوِّضها كما يُروِّضُ الراكبُ الصعبةَ حتى تسكن إلى أختها، وترتاح إلى جوارِها، ولم تزل تلك حالي أدخل بينهما دخول المرود بين الجفن والجفن، وأمشي بينهما مشية الحكيم في الصُّلح بين القوم والقوم، حتى ائتلف الذوقان، وامتزج الرُّوحَان، وضمت شمسيهما[5] طَفاوة، واحتوت بَدْرَيْهمَا هالة، وخلعت الأولى على الثانية جلالها، وأعارتْها الثانية نضارتها وجمالَها، وأصَبحت تلك المعاني الإفرنجية بعد أن صقلها اللسانُ المبينُ، وجندرها[6] الذوق الشرقي وهي تسكن في هذه المغاني العربية.

(1) اليراع: القلم يتخذ من القصب.
(2) المصاص: الخالص من كل شيء.
(3) دعاء بالزيادة.
(4) أم اللغات: اللغة العربية.
(5) معنى الطفاوة: الجمال الشديد.
(6) الجندرة: إعادة الرونق بعد ذهابه، يقال: صقله بالجندرة والكتاب: أي أمر بالقلم على ما درسَ منه ليتضح ويتبين.

obeikandi.com

ولم يقع للناطقين بالضَّادِ حتى اليوم شيء من مؤلفات ذلك الحكيم، وهم أحوج الناس إلى معرفة أسرار الحَياة والانتفاعِ بمثل ذلك الفكر الذي كنتُ أراه يسابحُ الأجرام في أفلاكها، إذا هو يُدارِجُ النمالَ في مَدَابها، وبينا ألمحهُ بين ذروة العَلَم وشُرفة القَصْر إذا هو بين قعْر البحر وعَقيق النهر. فكم أفلتَ منْ هَجيرة واختبأ في خميلةَ، فمن تلهب جمرة القيْظِ في صميم القائلة[1] إلى تَرواحِ النجم في الروضة، ومن التردد بين زفير العاشق وحرقته إلى التمشي بين نفس الحبيب وريقته. ولا يزال الكُتَّابُ في كل أمة يلتمسون أن يعقل عنهم ما ألهموا أن يدخلوه في مؤلفاتهم من الحكم والأمثال، فيَصدحُونَ عنها الشرور بأقلامهم كما يصدحُ المطر، ويستهبطون الحكمة من سمائها فيسكنُونَها بين سطورهم، ويُنشدُون لذلك الأمثال فينثرونَها فيما يتخيَّرونه من الأقاصيص التي تدعو إلى العظِة، وتَصْفَحُ النفوس عن ركوب سُبل الغواية.

ومن تلك الأقاصيص ذلك الكتاب الذي أُعَاني تعريبهُ اليوم، فلقد قَصَّ علينا أحسنَ القصص، فكان مثله فيه كما قَال عن نفسه مثلُ المنجم الذهبيّ لا تصل الأيدي إلى تبره حتى تكادُ تحصى ثراهُ عَدًّا. وقد اختارَ الله لي أن أعربه فاستعنته فأعانني، واستهديْتُه فهداني، وسلختُ اثنى عشرِ هلالا في تعريب تلك الصفحات التي تَرَوْنَها اليومَ، وحاولتُ أن أصلَ بها تلك الرَّحم التي قطعتها يدُ الترجمة التجارية بيننا وبين أولئك الرجال الذين تجرَّدُوا لتعريبِ أساطير الأولين فوَفَّوْهَا قسطها من الإتقان، وألبسوها من البهجة لباسًا ترضاه اللغةُ ويرضاهُ أبناؤها. أرأيتكَ أيها الناظرُ في كتاب «كليلة ودمنة»، أكان يقوم بنفسك وأنت تذوق حُلْوَ تركيبه، وتستمرئُ لذة أسلوبه أنَّ عبد الله بن المقفّع قد عرَّبهُ عن الفارسية لو لم يصل خبرُ ذلك إليكَ؟ فسقيًا لتلك الأقلام التي عرَّبَت فأعربت، وسطرت فأعجبت، وواهًا[2] لهذه اللغة التي أصبحت بين أعجميّ ينادى بوأدها، وعربيّ يعملِ على كيدها.

---

(1) أخرجها مثلًا، وكان من وساوس العرب إذا خشوا سقوط المطر أن يعمد أحدهم إلى خيمته فيرسم حولها دائرة ويتلو رقية يعلمها رجاء أن يخطئ المطر في سقوطه ما يكون ضمن تلك الدائرة. وقد كانت هذه الصفة مما استعلن به المتنبي على تأييد دعواه في النبوة.

قلت: الرأي الصواب أن المتنبي لم يدع النبوة، وقد ذكرتُ ذلك في كتاب (أدعياء النبوة)، ورددتُ على القائلتين بالإثبات، انظر (أدعياء النبوة) تأليف عادل عبد المنعم أبو العباس - مكتبة الغد (ص400).

(2) وَاهًا: كلمة تأوه تعني الحسرة.

ومن نظرَ في بطونِ تلك الكتب التي تُتَرْجَمُ اليومَ رأى هذه الغادةَ الشرقيةَ وهي على فراش موتها تندب خدرًا قد ابتذلته الأقلام، وسترًا قد هَتكتهُ الأوْهَام، وقد فَتحُوا لها في بطون هذه الكتب قبورًا، وخاطوا لها من تلكَ الصحف أكفانًا، وهيأوا من هذه الأقلام أعوادًا، وما هو إلا أن يثني ذلك الغربيّ بدعوته حتى يَسرعَ إلى جنازتها أهْلُهَا وذوو قَرابتها.

اللهمَّ أنتَ تعلمُ أننا نعلمُ موضعَ الداء وفينَا الطبيبُ الماهرُ، ونسمعُ ذلكَ النداءَ ومنا المعينُ الناصر، اللهم إن هذا خذلانٌ منكَ فأدركنا برحمتكَ وهيئ لنا من أمرنا رَشَدًا. أيكونُ بين أبناء اللسان العربي مِثْلُ من أرَى اليومَ من فحول البلاغة وملوك الكلام، وأنَا لا أعرفُ مَن هذه الأزهارِ قديمها وحديثها غيرَ أسماء معدودات، ولا أكادُ أجيدُ وصفَ قصر من القصورِ أو آلةَ من الآلات، ومخترَع منَ المخترعات، إلا ما وقعَ تحت نظر العرب في تلك الجزيرة الجرداء، وما سمتْ إليه حضارتهم في عهد الدولة الأندلسية؟!

أيُّ رجل كانَ صاحب «كتاب البؤساء»، وأي غيث سقاه، وجو حَواهُ، حتى أدخلَ في لغته من الكلمات ما يخطئهُ العدّ، ووقفَ في وجوه المعارضينَ فيها وقفة البسفور في وجوه الطامعينَ في هذه الدولة حتى انقلبوا عنه خاسرين؟ أو ليستْ رجالنا بقادرينَ على أن يأتوا متساندين بمثل ما أتى به ذلك الرجل وهو وحيد؟!

obeikandl.com

كلمةٌ للمعَرّبِ

«في المؤلّف»

وُلد «هوجو» والقرنُ الغابر صبيٌّ في مهده لم يدرجْ من حجْر أمّه، ولم يفرّق بين أمسه ويومه، فاصطحبا طفلين، ثم افترقا، وضربَ الدهرُ بينهما ضرباته فالتقيا شيْخَيْنِ فانيين، فإذا الأوّلُ سيد القرون، وإذا الثاني نادرة البطون، هذا يمشي على قدمين من ليل ونهار، ويطيرُ بجناحين من كهرباء وبخارٍ، وذلك يتوكأ على عصويْن من عظةٍ واعتبار، ويرتدي ثوبين من حكمة واختبار، وقد جلسَ الأول على سرير دولة الأيام، وأخذ الثاني بصولجان دولةَ الأقلام، فالتقتْ دولةِ العَجَب، بدولة الأدَب، واجتمعتْ بدائعُ الاختراع، ببدائعِ اليراعَ، فاخضَلَّ ظلُّ هاتين الدولتين، وامتد من المغربين إلى المشرقَين، فظلَّ الناسَ بين نعيم الحرية، ونعيم المدينة.

سبحانك اللهم هل كانت تعقل هذه الذرات وهي في علام السديم، أن سيرتقي بها الحال إلى العيش في هذا النعيم، فتبارك الله ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ • عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

وُلد «هوجو» واللغة الفرنسوية بمنزلة بين الضعف والحاجة، والقوم بينَ أسر التقليد، وذل التقييد، والأدبُ لم يبق منه إلا الذَّمَاء[1]، فأنبته أبوه نباتًا حسنًا، فما كاد يشهد ستة عشر ربيعًا حتى تحركت نفسه إلى معالجة الشّعْر فقرضَ قصيدة دارَ لها فلكُ البلاغة، ورددها لسانُ الكون، رفعها إلى المجمع العلمي، فاهتزتْ جوانبهُ عجبًا، وكادت تطيرُ أعضاؤه طَربًا، ولولَا أنهُ كشفَ فيها عن سرّه، وأوضحَ عن بيان عمره، لأجزلوا ثوابَهُ، ورفعوا جَنابهُ، ولكنهم قارنُوا بين شعْرَه وعُمُره، فاستنزروا أيامَهُ، واستغزروا[2] بيانَهُ، فظنوا أنه يسخرُ منهم فلم يجيزوه إلا يسيرًا، وهَبَّتْ بعد ذلك رياحُ سعوده فأخذ بناصية القوافي، وتنازلَ له سلطانُ الخيال، فسبحَ في ملكوته ما شاء الفكرُ، وما زالَ يتنقل في تلك العوالمِ الخيالية حتى نودي به أميرًا على دولتي النظيم والنثير. وشجرَ بينه وبين جماعة الشّعراء الخلافُ، فرأوا الحفاظ والتمسيك للقديم، ورأى غير ذلك، فلم يزل بهم يصابرهمْ ويطاولهم حتى ظهرَ عليهم، ورفع للشعر منارًا أطلّت منه الحقيقةُ بجلالها، وأشرفت منه الطبيعة بجمالها. ولم قيود الشعر، وأطلق سراحهُ من سجن التقييد وقد وقف إذ ذاك على أبواب الثلاثين من عمره، نظرَ فإذا فنُّ التمثيل يتضاءل تحت أستار الملاعب، تضاؤل الحسناء تحت الأطمار، لأخذ رجاله بأسباب التقاليد، وترسمهم أثر الرومان واليونان فيما وضعوهُ من الأقاصيص التي تمثل أدوارَ تلكَ الأزمان الغابرةِ، ورأى أن الواضعين فيه لم

(1) الذماء: بقية الروح في المذبوح.

(2) استغزر الشيء: طلب كثرته.

obeikandl.com

يجيئوا بما ينقع الغلة، فانبرى إلى منازلة أولئك المقلدين، وقامت بينهما حرب عقدت عجاجها الأقلام، وأدارت رحاها الأفهام، فما زال يكرُّ عليهم بجيوش البيان وكتائب البرهان، حتى خضعُوا لقلمه، وساروا تحت علَمه. ولاحتْ بعد ذلك تباشير الإصلاح في سماء الأدب، وظهر كتابه الذي سماهُ «نوتردام دي باري Notre dame de paris» فطلعَ على الناس طلوع القمر على المدلج الحائر، حَشَرَتْ لهُ فيه اللغة جنودَها من الألفاظ والمعاني، فاستعرضها صفًّا صفًّا، وتفقّدها حرفًا حرفًا، ثم أبرزها إلى ميدان التحرير على أحسن تعبئة وأكمل نظام، وَقد وفَّقَ بين قلبيها وجناحَيْهَا كما يوفق القائد الخبير. ولما قضى من الأدبُ لبناته، وأخذ من الشعر حاجته، هجرَ الشعرَ إلى السياسة، وما هيَ إلا جولةٌ من جولات الفكر حتى دعته السياسة إلى مواصلة الشعر ليوضحَ لهاَ سبيل استهواء الأفئدة، واستبطانِ الضمائر، ويكونُ طليعتها في كشف ما يَسْتَكنُّ في قرارة النفس وخلجانِ الفؤاد.

وبلغَ «هوجو» من السياسة كوكبها، فركبَ سفينة الحرية عرضَ بحارها، فما زالت تُوفي به من بحر إلى بحر، وترمي به من عبْر إلى عِبر، وهو على ظهرها يطالع في أفقَ الدهاء، صحيفة الرجاء، وقد وضع أمامَهُ إبرةَ الأمل، وجعلَ وجهته قطبَ العمل، حتى بلَغته شاطئَ آماله، وحمدَ مغبَّة أعماله. وما كادَ يتنسَّمُ الإفرنسُ[1] نسيمَ الحرية حتى هبت ريحُ الاستبداد من رُقادها، وعصفت من جوانب العرش المالك، فاحتملتْ «هوجو» على أكتافها واندفعت به حتى إذا بلغت سماء «بروكسل» عاصمة «البلجيك» ألقت به هناك في منفاه الجديد. فنزل الرجلُ متماسكًا لم يعتره الدهش، ولم يتطرّق إلى عزمه الخمول، وغادرَ «باريس» وقد أقسم أن لا يهبطها أو يهبط عرش الملك فيها، وبرَّت يمينه فإنه لم يطأ أرضها حتى وطئتها بوادر خيل الألمان في حرب السبعين.

ولبث «هوجو» في منفاه وكانت أيامه فيه أخصبَ أيام حياته، فأسلسَ العنانَ لفكْره، وأوسعَ المجالَ لقلمه، فوضعَ كتابَهُ الذي سماهُ «نابليون الصغير» ونظم بعده «كتاب العقوبات» فنالَ فيه من نابليون الثالث ما لم ينله منه زوال ملكه، وكان عليه أشدَّ غضاضة من تسليم سيفه إلى يد عدوّه في يوم خذلانه. وجاء ذلك الكتابُ مثال ما يملي الحقد على القريحة، وتوحي الموجدة إلى اليراع، ووضع بعده «كتاب المشاهدات» و«كتاب البؤساء» الذي نعرِّبهُ اليومَ، وكم له غيرها من مؤلفات جليلة، ومنظومات بديعة، منها ما صنعَهُ في صباه، «كأوراق الخريف»، و«أناشيد الشفق»، ومنها ما وضعه بعد عودته إلى الوطن ككتاب «العام الأسود»، ومات «هوجو» وهو نادرةُ الفلك، وواحدُ عطارد.

(1) الإفرنس: أهل فرنسا.

كلمةٌ للمؤلفِ

«في البؤس»

مَثَلُ البَائِسِ الذي سَجّلتهُ يد المقادِيرِ في سجل العنَاء، وطوّحت به في ظلمات هَذا الوجود فمضى يتخبطُ في ديجور الحياة، يؤمه النحسُ، ويمشي علَى أثرِه الشقاءُ، تلعبُ به الأيام لعب النكباء[1] بالعود، ويدب في نفسه اليأس دبيب الآجال في الأعمار، كمثل الغريق ظفر به البحر الهائج في يوم ريح صرصر عاتية، فلبث معلقًا في خَيط من الأجل بين شقيْ مقصّ الفناء، يفتح لهُ الوهمُ بين كل مَوْجَتَيْن قبرًا، ويمدُّ له الخوف بَين كل قطرتين بحرًا، يطفو به القدرُ ويرسبُ به القضاء، فتلتقفهُ الموجة بعد الموجة، وتلتقمه اللّجة بعد اللّجة[2]، وقد درجه البحر في كفن من الزَّبَد، وحمله على نعش من الماء فوق أعناق أمواج كالجبال، تعلو به تارة إلى مجرى الأفلاك، وتسفلُ به أخرى إلى مَسْبح الأسماك، حنقَ عليه الماء والهواء، وزهدتْ في وجوده الأرضُ والسماءُ، وكلما همَّ بالاستسلام للموت أدركه الحرصُ على البقاء، فجعل يجالد[3] تلك الأمواج الثائرة، ويصارعُ ذاك الجبارَ العنيد، حتى إذا نزحَ التعب قواهُ، طواه البحر في جوفه طيَّ السرِّ في الفؤادِ، ذلك مثل البَائسِ في هذه الحياة الدنيا.

أمَا ذلك المجتمعُ الإنساني فمثله كالسفينة أخذت في ذلك الخضَم مجراهَا، فانحطتْ عليها الأعاصير، واصطلَحت عليها الأنواء وألقت بها في تلك اللجج التي تضل فيها الظنون والأوهام سبيل النجاة، يَدْنوُ منها القضَاءُ فيفرق، ويَسْبَحُ فيها الخيال فيغرق، إذا تدجّت[4] فهي ليالي الشقاء، وإذا ثارت فهي براكين الماء، ألقى بهذه الجارية تيار الماء والهواء، إلى حيث هذا الغريق تصافحه رسُل الحمام، فجعل يدعوها إليه مرة بالنداء، وأخرى بالإيماء، لتستلّ حياته من يد الأجل، وكلما صاحَ ذهبت بصيحته هوج الرياح، أو أشارَ قام بينه وبينها سدٌّ منَ الأمواج، فهي لا تسمعُ نَداءَهُ، ولا تنظر إيماءَه ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾.

(1) الريح الشديدة.
(2) اللجة: تردد أمواج البحر.
(3) يجالد: يصارع ويكافح.
(4) سكنت وهدأت.

obeikandl.com

الفصلُ الأول

جان فالجان

أشرفَ على مدينة «ديني» رجلٌ يضربُ في الأرض على قدميه فدخلها وقد مالَ ميزانُ[1] النهار، واكتهل اليومُ الأول من شهر أكتوبر سنة 1815، وكان قدْ ركبَ نعليه عامةَ يومه، فما أدركها حتى أخذ منه الجهد، وأعياه التعب، وأملَّهُ طولَ الشقة[2]، وحتى ملكهُ الجوع، ونالَ منه الظمأ، وجمعَ في منظره بين تعب الحياة وتعب السفر، فكانت النظرةُ إليه تدعو إلى الرِّيبة فيه، لذلك ما نظره أحد من سكان تلك المدينة إلا ومرَّت به خلجة شك في أمره.

وكان رَبْعَةً[3] في الرجال بادنًا[4] شديد الحول، يضرب لونه إلى السمرة طويل شعر اللحية قصير شعر الرأس لقرب عهدها بالمقراض[5]، نيفت أعوامه على الأربعين، عليه أسمال بالية[6]، وبيده عصا، وقد احتقب خُرجًا ملأه بحاجته ولباناته.

دخلها وهو أشعثُ أغبر، وقد انتشرتْ على أديم وجهه طبقة نسجتها يدُ السفر من خيوط الشمس، وطلتها بطلاء من العرق والغبار، فسار فيها وقد أنكره كل من رآه، وكذلك يُنكَرُ ابنُ السبيل، وأخذ سمته إلى دار المشيخة، فمضى[7] قدمًا في إحدى سُبُلهَا[8] حتى إذا قطعها عطف[9] يسرة، وعرج على تلك الدار ولبث فيها بعض ساعة، وخرجَ فمر بجندي فحياه فَصعَّر[10] الجندي خده وتثاقل في ردّ تحيته، فمشى الرجل في طريقه ونظر الجندي يترسم[11] مواقع أقدامه حتى غاب عنه سوادُهُ.

ولعله كان قادمًا من الجنوب، فقد طلعَ على تلك المدينة من ذلك السبيل الذي ركبه نابليون الأول قافلا من «كان» إلى «باريس» منذ سبعة أهلة، وكأنه منذ أصبحَ ما تبلّغ[12] فما هو الآن إن أفلتَ من دار المشيخة حتى تيمم النُّزل، فلما بلغه دَلفَ[13] إلى حيث يطبخ، فألفى ربَّ النزل هناك، فسأله ربُّ النزل وقد أحس بقدومه وإن لم

---

(1) مالت الشمس إلى الغروب.
(2) السفر الطويل.
(3) الرَّبعة: بين الطويل والقصير.
(4) بدينًا سمين الجسد.
(5) مقص الحلاق.
(6) ثياب رثة قديمة.
(7) أي سار إلى الأمام.
(8) سبلها: طرقها.
(9) انعطف: اتجه وانحنى.
(10) شمخ بأنفه وتكبر.
(11) ترسم الأثر اقتفاه.
(12) تبلغ أكل الخبز.
(13) دلف مشى.

يمد إليه بصره، ما سؤال الطارق؟ فقال الرجل: أَكْلَةٌ ونَوْمَةٌ، قال: لك سؤلك،ثم التفت إليه، فما كاد يأخذه نظره حتى أخذه الشك فيه، فعطف قائلًا : أو تصل يدك إلى وفاء حق ما تطلب، فضربَ الرجلُ بيده إلى جيبه وأخرج كيسًا فهزه حتى أسمعه وَسْوَسةَ[1] ما بداخله وجلس إلى النار يصطليها وقد كان مقرورًا[2]، وولى ظهرهُ البابَ وجعل رَبُّ النزلِ يخالسهُ النظرَ فيه الجيئةِ والذهوب، والرجل غافل عنه ينكت الأرض بعود في يده حتى كادَ يأتي عليه[3] الجوعَ فصاح بصاحبه: أما آن أن آكلَ وليس هُنَا مَنْ هو أحوج مني إلى الطعام، ومالي بدٌّ من تناول ما أمسكُ به النفس. فقال له رب النزل: إني ليحزنني أن تنصرف عنه وأنت طاو، فلقد سبقك إلى شراء ما ترى قوم نزلوا بنا منذ اليوم وما منهم إلاّ من هو أحرص منكَ على الطعام. فقال الرجل: لن أبرحَ الأرض أو أصيبَ ما أتبلغُ به فلقدْ سايرتُ الشمس من شروقها إلى غروبها، وقضيتُ يومي طاويًا، وما بلغتُ هذا المكان حتى أدمى السيرُ قدمي، ومِنَ العَجْزِ أن أبتغي عنهُ حولًا.

(1) يقال وسوسة الحلي ووسوة الدراهم صوتها.

(2) المقرور الذي أصابه القروهو البرد. (3) أتى عليه أي أهلكه.

فقال له صاحبه وهو يحاوره: لقد بالغتَ في محاسنتك كي لا أجبهك[1] بالرد، وكرهت أن أجمعَ عليك بين مرارة الجوع وغضاضة المنع، فأبيتَ إلا الإصرارَ فاغرب عني أيها الرجل ولا تلحف[2] في السؤال فأنا أعلمُ بك منكَ ولو شئت لزدتك، فقدْ زهدني فيكَ ما أقرأ عنك في تلكَ الرقعة التي تراها بيدي، وصاحبُها لا تغيبُ عنه وساوسُ صدرك وإنكَ لقريبُ العهد به، ذلكَ رب الدار التي عرجت عليها حين أحلّتك المدينة فاذهب غير معقب، وحسبكَ ما سمعت «يا جان فالجان» فعالج الرجل الكلام، فاستعصى عليه لفرط الدهش، فأهوَى بيده إلى متاعه فاحتمله وخرج يتعثر في ذيل الخيبة، وركب الطريق الأكبر، ومضى على وجْهه يقتادُهُ القضاءُ والقدر.

ولو أنه نظرَ وراءهُ لرأى بباب النُّزل قومًا تكاد تنهبه أبصارهم وما منهم إلَّا من قَاف[3] أثره بنظرة من الشك، ولكنَّ الرجلَ لم يلتفت، فقلما يسكتُ البائسُ الحزين إلى تلك اللفتة التي تريه النحسَ على عقبيه، فواصلَ السير وقد أنساهُ طريف الحزن تالد التعب، ولَكنه ما لبث أن تنبه فيه هاجعُ الجوع فأشفق أن يداهمه الظلام قبلَ أن يبلغ مكانًا يعصمه من القرّة[4] ويذود عنه الطوى، فما زالَ يتيامن ويتياسر حتى لمح ضوءًا فقصده فإذا هو على باب نزل حقير، فوقف أمامه وهو يكبره، الجوع يدفعه والخوف يمنعه، حتى صحت عزيمته على الولوج[5]، فلما صار بصحن الدار وبصر به ربها[6]، صاح مَن الطارق؟ فقال الرجل: عابرٌ يطلبُ قوتًا وكنًّا[7]، ودخل حيث يسمع الصوت، فوجدَ قومًا جلوسًا ينتظرون نضجَ الطعام، وشم ريح القتار[8] فكادت تثب أحشاؤه إلى القدْر، فقال له صاحبه: دونكَ النار فاصطل ريثما ينضج الطعام، فانتحى ناحيتها، وجَلس إليها، ومد أمامها قدمين أَدْمَاهُمَا التعب.

وما كادَ يحتويه هذا المكان حتى احتوى الشك من فيه، فقد نظروا رجلًا ترتسم على وجهه آلام الحياة مطرقًا حزينًا، إذا أمررت عليه النظر إمرارًا رأيت فيه سهولة السطيع، وإذا أدمنته فيه تبينت فيه الجفاء. وكانَ بين أولئك الجلوس رجل قد بصرَ به ضحوة النهار وقد ركب الطريق بين «براسكاس واسكابلون» فرابَهُ أمره[9] حين دنا منه وهو فارس، فطلب إليه ذلك البائس أن يردفه لينفس عنه كرب السير، فكان جوابه أن استحث جواده هربًا من شر تلك الطلعة، وقد أراد الله أن يكون ذلك الفارس بين أولئك القوم الذين كانوا بباب النزل الأول وقوفًا يشيعون ذلك الطريد بنظرات تقعد همة «الفوتوغرافيا»[10] عن تصوير ما فيها من الاستخفاف والازدراء،

---

(1) جبهه بالرد واجهه به.
(2) اللحف في السؤال أي ألحّ.
(3) قاف بمعنى اقتفى.
(4) القرة البرد.
(5) الولوج: الدخول.
(6) ربها: صاحبها.
(7) الكن: البناء والمسكن.
(8) القتار: دخان رائحة الطبيخ.
(9) رابه: شك في أمره.
(10) آلة التصوير.

وبين أولئك الجلوس الذين رابهم أمره في النزل الثاني، فأومأ إلى رب النزل، فلما دنا منه همسَ في أذنه كلمات ملأته نفورًا من ذلك القادم فانفتلَ إليه[1] وقال له: ما كان أخلقك بالتحوّل عن هذا المكان، فأجابه الرجل أو قد علمتَ بحادثة هذا النزل؟ قال: نعم وسَنشْفَعُها بأخْتها، فاستقبل الرجل البابَ، ولما صارَ بالطريق إذا هو بصبية يرجمونَهُ بالمدَر[2] وقد تعقبوهُ منذ هبط المدينةَ، فخشيَ أن يصيبه عنتٌ منهم إنْ هو تغافلَ عنهم، فأشارَ إليهم بعصَاهُ يوهمهم بالأذَى فنَفَرُوا عنهُ نفورَ القَطَا[3]، فانطلقَ حتى إذا صارَ أمامَ السجن خطرَ له أن يأوي إليه ليلتَهُ وقالَ: لن أجمعَ على نفسي بين الجوعِ والسهاد، ولقد أرَاني إلى الراحَة أجْوَعَ مني إلى الطعام، وهذا جوٌّ خليق أن يهلكني قَرُّهُ ولن أعدم أن أجد في هذا السَجنِ مكانًا يعصمني منه.

فلما تمكن منه هذا الخاطرُ طرق البابَ، فقال السجانُ: من الطارق؟ قال: غريب لا مندوحةَ له عن الالتجاءِ إلى السجن. قال: ومتى كان السجنُ دارًا للضيافة، فإن كنتَ أمسيتَ وقد أعياكَ الأمرُ فهذا بابُ اقترافِ الجرائم لا يزالُ مفتوحًا، وَهو لا يلبثُ إنْ ولجتَ فيه أن يقتادكَ إلى هنا، فانصرفَ الرجل مخذولا، وليس وراء ما به من البؤسِ غاية؟ وتغلغلَ في المدينةِ فمرَّ في طريقٍ ضيق على عِطْفيهِ

---

(1) انفتل: انصرف. (2) المدر: الطين المتماسك. (3) القطا: نوع من اليمام.

حديقتان عليهما سياج، وفي وسط إحداهما دار صغيرة تعلو الأرضَ بطبقة بإحدى نوافذها سراجٌ يضيء الليل، فما هو إلا أن رآهُ حتى أسرع إليه، فلما بلغهُ نظر من تلك النافذةِ فإذا ربُّ الدارِ بين زوجته وولده وهو أهنأ ما يكون بالاً، فقال: أستضيفهم، فلعلي أُصادفُ منهم جانبًا رحيمًا، ثم خَفَّضَ من جَزعه ونقرَ بأصبعه على زجاج النافذة نقرةَ الجبان، فلم يَسْرِ إليهم الصوتُ، فخلع عنَ منكبيه رداءَ الفزع، ونقرَ نقرة مطمئنة، فقالت المرأة لزوجها: كأني أسمعُ نقرًا على زجاج النافذة، فتسمَّعا جميعًا، فسرى إليهما الصوتُ، فقام الرجلُ إلى السراج فحملهُ واستقبلَ البابَ ففتَحَهُ، فأخذ بصره رَجُلًا تَذعَرُ منهُ الأبالسة.

فقال ربُّ الدار: من الذي أرَى؟ قال: غريبٌ يستضيفكَ ولكَ الحكم في الأجْر، فقال له وقد دب الشك فيه: إنْ كنتَ ذا مالٍ كما تزعمُ فهذه الفنادقُ فما منعك أن تغشاها؟ قال: غشيتها فلم أجد فيها مكاناً؛ فقال له وقد تملكه الشك: إن ما تقولُ لشبيهٌ بالباطل، وليسَ هذا بابان المواسم، وإني لأرى رجلًا غير ميمون الطلعة، ولقد راعني منكَ ما يروع المرء منْ قاتله، وكأني أسمعُ صوتًا يقطرُ منه الدمُ، وأكبرَ ظني أنك ذلك الرجل. فقال لهُ: لَا تعجلَ في الحكم على ما ليس لك به من علم، فهل أنا إلا ابنُ السبيل قطعْتُ في يومي اثني عشرَ فرسخًا وقد أجهدني الكدُّ وأنصب بدني التعب، وأخذ مني الطوَى، فهل لك أن تُسْعفني بكسْرَةٍ من الزاد ولك أجر المحسنين، فإن لم تفعلْ فَشَرْبَة من الماء؟ فقال: بلَ شربةٌ منَ حميم، وأغلقَ في وجهه البابَ، فوقفَ الرجل، وقد كادَ يأتي عليه اليأسُ لولا أن بصرَ في ضوءِ الشفق بشيء شبيه بالكوخ في وسط الحديقة المجاورة لذلك البيت، فقال: ما لهذا الكوخ بدّ من ساكن، ولكني آتيه فلعلي أجدهُ خاليًا فأفني فيه دولةَ الظلام، واستجن[1] فيه من ذلك البلاء المتساقطَ، فقصدهُ فإذا هوَ وجارُ[2] كَلْب وقد غابَ عنه صاحبه، فانبطحَ فيه الرجل على وجهه، واستحالت عليه الحركةُ لضيق المكان، وكان متاعه لا يزال على ظهره، ولم تقوَ يدهُ على إزالته لفرط ما ناله من الأين والنصب، فلبث قطعًا من الليل وليس به حراك حتى إذا أمَلَّهُ حمْلُ ما على ظهره عمد إلى نزعه، فأخذ يعالجه بيده، وإنهُ ليفعلُ ذلكَ إذ فاجأهُ ربُّ الوجار، فتسللَ الرجلُ من مكانه وغادرَهُ ذلك القادم، وأشفق أن يثير غضبهُ بتثاقله عن الخروج فينشب فيه أنيابه وهو في ذلك المضيق لا يستطيع دفعًا عن نفسه، وخرج من البستانِ وهو أشد ما يكون جزعًا من الحياة شريدًا يطويه البردُ وينشره الطوَى، تعذَّرَ عليه حتى الوصولُ إلى السجون، عزَّتْ عليه حتى مَراقدُ الكلاب!! فلما صارَ في الطريق قال: لقد قصدتُ الفنادق فذادوني[3] عنها، فالتجأت

(1) استجن، أي استتر. (2) الوجار، الجحر. (3)ردوني وطردوني.

إلى السجن فكذاك، فاستضفتُ الناسَ فكذاك، ولقد زَهِدَتْ فِيَّ حتى الكلاب، فليسَ لي إلا التحولُ عن هذه المدينة.

ثم سارَ مقنعَ الرأسِ كاسفَ البالِ واستقبل الفضاءَ وكان ليله بهيمًا[1]، ضرير النجمِ، شديد القر، ساقط النواحي، متهم الصباح، فانطلق حتى إذا بلغَ مزرعةً حديثةَ العهد بالحصْد رفع رأسهُ ومدَّ بصره فإذا ظلمات يقصر فيها قاب العين، وقد زادَ في ظلام الليل ما تلبدَ في سمائه من تلك السحب الكثيفة، فكانت السماءُ أشدَّ ظلمة من الأرض، فانقلبَ الرجل على عَقبيه وأمَّ المدينة، وكانت ذاتِ سورِ وأبواب، فرأى الأبواب وقد أغلقت، فحاوَل التسوُّرَ فأعياهُ الأمرُ، فما زال يطوفُ بالسورِ حتى عثرَ على ثغرة فيه، فانحدر منها إلى المدينة ومضى على وجهه ترامي به الطرقات وتقاذف به الأزقة، حتى مرَّ ببيعة فوجدَ على بابها مقعدًا من الحجر فسقط عليه ولا يعي من فرط التعب واضطجع فيه، وما كاد يحتويه ذلك المضجعُ حتى خرجت من تلك البيعة امرأةٌ صالحة فقالت له وقد رأته ممددًا كالجذع: ما خطبك أيهاالنائم؟ فقال لها: وهل يدعو ما أنا فيه إلى السؤال ألا ترين أني أنام؟ فقالت له وقد أخذتها رأفةٌ عليه: أتفترش الصخرَ؟ قال: مرَّ بي تسعَة عشر حولًا ولا أفترش غير الأخشاب، وأنا الليلة أفترشُ الصخور، ولولا أني صفر اليدين لاكتريتُ لي مكانًا، على أنني طرقتُ الأبواب فلم أظفر بكريم فقالت له: ألا أدُلكَ على بيت ما طرقَهَ قبلك طارق وجبّه بالرد، وأشارت له إلى بيت صغير على كثب منهُ فأخذ الرجلُ سمته إليه. وكان هذا البيتُ لعابد بمدينة «ديني»، وقد أفرد له المؤلفُ في صدر الكتاب بابًا قصَرهُ على ذكره ومنَاقبه، ومبلغ ما فيه أن الرجلَ مسامحٌ كريم، عفيفُ الإزار، طاهرُ المهد، سريرته في بياض صحيفته، فعَّال للخير، مَنَّاع للشر، وكان يقطن هذا البيت مع أخت له على خُلق كريم، وهي امرأة نصف، لا عجوز شَمْطَاء[2] ولا فتاة هَيْفَاء، وكانت لهما خادم من ذوات الأسنان، تعد من العمر ستين عامًا.

وبينا كان الرجل آخذًا طريقه إلى ذلك البيت كانت الخادمُ تُحدّثُ مَوْلَاتهَا: لقدْ هبطَ المدينة رجلٌ غريبٌ ما رآه أحد إلا وذَعُرَ منْ رؤيته، وقدَ مشى بحديثهَ الكبيرُ والصغيرُ، فورد الأندية، وولج الأخبية[3]، وأجمعَ الناسُ على وجوب التحرز منهُ حين نظروا في وجهه سيمَا[4] الفتك والشرور، فلا ينجلي هذا الليل إلا عن حادث جلل، وها هو ذا يطوفُ تحت راية الليل في الأزقة والطرقات، حتى إذا عَنَّ له صيدٌ أو أنس من أحد غرة وثب عليه فسلبه نفسه ومتاعَهُ، ولا آمنُ ونحنُ في هذا البيت أن

(1) مظلمًا شديد الظلمة.

(2) يقال: امرأة شمطاء ولا يقال: شيباء، وشمط المرأة في شعرها.

(3) جمع خباء، وهو كل مكان يستتر فيه الإنسان. (4) السيما: العلامة.

يصولَ علينا ذلك الذئب صولتَهُ، ولا أظنُّ تهاوُنَ العسَس في الأمور إلى هذا الحدّ إلا لما أمسكه حاكمُ البلد في نفسه من الضغينة على رئيس الشرطة، وما وقره رئيس الشرطة في صدره من الوجدة على ذلك الحاكم، يحاول كلاهما إلقاء تبعة الحوادث على صاحبه،ولقد وجب على كل من له مسكة من العقل أن يقيم من نفسه حارسًا على نفسه حتى تنحصر فترةُ الشقاق بينهما، وأنا غاديةٌ إلى السوق لشراء مزلاج[1] لهذا الباب، وداعيةٌ أحدَ النجارين لإصلاح عُضادَتهُ، وإنها لتحدثها كذلك إذ دخل سيدها وقد ألمَّ بطرف من الحديث، فنظر إليها نظرةَ المستطلع، وسألها سؤال المستخبر، لقد وعيتُ طرفًا من حديثك فما عسى أن تكون تلك النازلة التي توشك أن تحل بنا، فاندفعتِ الخادمُ تحدثُ مولاهَا بما تعلمهُ من أمر ذلك الرجل، وكلما آنستْ منهُ ارتياحًا إلى سماعِ حديثها، تغلغلت في الإغراق، واسترسلت في المغالاة وقالت: ولقدْ عوَّدَ مولايَ طُرَّاقَهُ على الدخول في هذا البيت قبل الاستئذان، وقد علموا منه ذلك فهم يغشونه بالليل والنهار، ولا يكلفهم ذلك غير دفع هذا الباب، وما كادتْ تنتهي من مغالاتها حتى سَمعُوا طَرْقًا، فقال العابد: أتيت أهلًا أيها الطارقُ، فاندفع البابُ بعنف، ولاحَ رجل على عتبة الدار، وأخذ يخطو إلى صَحْنها بقدم مطمئنة وصدر لا يبرحه القلب، وإن عهدنا بهذا القادم لقريب، فما هو إلَّا أن تراءَى حتى كادَ يقطع نياطَ قلب الخادم من الهلع، فهمت بالصِّياح، فخانها الصوتُ فلبثت فغارة الفم[2] غائبة الرشد، أما الأختُ فقد حفزَ الخوفُ أحشاءَها حفزًا، فنظرتْ إلى أخيها، فإذا هو مثلوج الصدر، جليد القلب، رابط الجأش، طلق المحيا، فثابَ إليها رشدَها، وعاودَها السكونُ، ومرتْ كأن لم تكنْ تلك الجازعةُ الهلوعُ، وأما ذلك الرجل، فقد وقفَ في صحْن الدار وأنشأ يقول:

إنني مجرمٌ، طويتُ في السجن رداء شبابي، وسلختُ فيه مائة وثمانين شهرًا حتى استوفيتُ عمر العقاب، ولم تشرق عليَّ شمس الحرية إلا منذُ أربعة أيام، فهبطتُ تلك المدينة، وقد شمَّرَ النهارَ فقصدتُ الفنادق، فحالت بيني وبينها تلك الورقة الصفراء التي يحملها حديثُ العهد بمغادرة السجون، فطرقتُ الأبواب فلم أصادف رجلًا كريمًا ولا قلبًا رحيمًا، فقلتُ: آوي إلى السجن فأنا أقربُ الناس عهدًا به، فنهرني السجَّانُ، فدلفت إلى وجار[3] كلب فطاردني حتى طردني، فقلتُ: أنطلق إلى الفضاء فأنام تحت حراسة النجوم فتقنعتْ بالسحابِ وكأنها عافت النظر إلى تلك الطلعة المنحوسة، وأشفقتُ من سقوط المطر فعدتَ معقبًا إلى المدينة، ولم أصبْ من رحمَة في الأرض ولا في السماءِ، فحالت بينَي وبينها الأبوابُ حين بلغتها، فما زلتُ أطوفُ بالسور حتى

---

(1) المزلاج: الترباس عند العامة.

(2) فتحت فمها بتعجب.

(3) الوجار: ما يتخذ للنوم والسكنى.

ظفرت بصدع فيه فانحدرتُ منه إلى المدينة، وهمتُ على وجهي في الطرقات حتى مررت ببيعة، فإذا على بابها مَقْعَدٌ من الحجر فانطرحتُ عليه وإني لكذلك إذ مرّت بي امرأة مِنَ الصالحات فنفضتُ إليها جملةَ الحال، فأرشدتني إلى تلك الدارِ وها أنذا قد بلغتها، ولقد عودني الشقاء على أنْ أجتزئ بالشربة، واكتفي بالكسْرَة فهل أنا مصيبٌ عندكم ما أمسك به النفسُ، فلقدْ ظللتُ يومي طاويًا وقطعتُ اَثنى عشر فرسخًا وأناراكبٌ هاتين النعلين، فإن فعلتُم وما أظنكم تفعلونَ فلكم ما تشاءون من الأجر فإني على الدَّفْع قديرٌ. فنظر العابدُ إلى الخادم وقالَ لها: هيئي لهُ مكانًا على المائدَة، ثم أخذَ يحدُ البصرَ إلى ذلك الرجل كمن يحاول أن يستشفَّ ما في قرارة نفسه، فَمضى الرجلُ قدمًا حتى اقتربَ من السراج وضربَ بيده إلى جيبه فانتزعَ منه تلك اَلورقة الصفراء «إجَازَةُ الإطْلَاق» وكأنهُ لم يصَدق أذنَهُ لقرَب عهدها بسماع غير الذي سمعت، فالتفتَ إلى العابدِ وقالِ لهُ: دونكَ الورقة التي ما صحبتني إلى مكاَنٍ إلا سبقني النحسُ إليهِ، وإني لأتلو عليكَ ما فيها فقد تعلمتُ القراءَةَ في مدرسةِ السجن، وأخذ يتلوها.

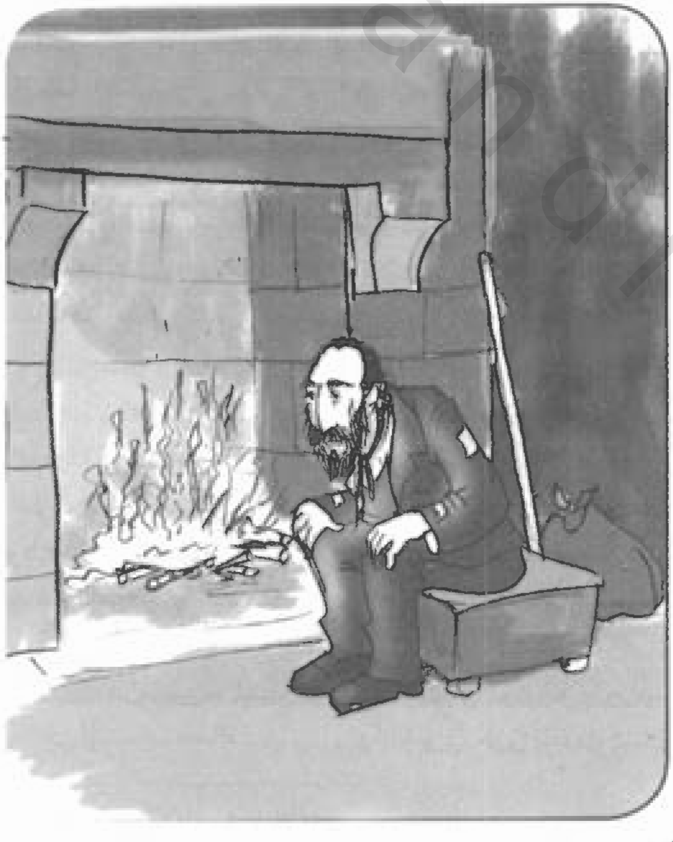

إنَّ جان فالجان مجرمٌ أطلق سراحهُ بعد أن لبثَ في السجنِ تسعةَ عشرَ حولا قضى خمسة منها قصاصًا على السرقة، وقطعَ الباقي جزاءَ معالجته الفرار من السجن مرارًا وإنهُ لفتَّاكٌ جسورٌ. لذلك تراني ما حللتُ في مكان إلا أنكرني مَنْ فيه، وأوجسَ خيفة مني فياليت شعري أكذلكَ تكونُ معي أم أنتَ من المحسنين؟!

فنظرَ العابدُ إلى الخادم وقال لها: ومَهدي لهُ سريرًا، وخاطبَ الرجلَ قائلًا: نزلتَ رحبًا، فاجلسْ إلى هذه النار، واصطلِ، وما هيَ إلا لحظة حتى يحضرَ الطعامُ فإذا فرغت من تناوله أخذتَ مضجعك في ذلك السرير.

فصدَّقَ الرجلُ في هذه المرةِ أذنيه، وأشرقتْ أساريرُ وجهه، وسري عنهُ ما كان فيه من الغم، وخرج به فَرْطُ السرور إلى الهذَيان فجعل يقول: أَسريرٌ وحشيَة وغطَاء وما لجنبي عهدٌ بها منذ تسعة عشر حولًا. ولقدْ كان قائمًا بنفسي أن لا أرى منكَ غير الذي رأيتُ من أصحاب الفنادق فما بالك تبالغ في محاسنتي كأني بعض بني الإنسان، ولقد كنتُ أنْهَرُ الساعة كما تُنْهرُ الكلاب، فما أرقَّ شمائلك أيها الرجل، فتالله لأضاعفنَّ لك الأجرَ. فياتُرَى ما اسْم هذا النزل؟ وكم ينبغي أن أدفع؟ فقال العابد: إن الذي يؤويك لم يكن بنزل كما تزعم، ولكنهُ بيت ذلك الذي يخاطبك. فقال الرجل: لقد خَيَّمَ الحزنُ على بصري فلم ألمح شارتَكَ التي تحملها، ولعلكَ عابدٌ بتلك البيعة القريبة، فلا تؤاخذني بما نسيتُ ولا ترهقني من أمري عُسْرًا، فأنتَ حقيقٌ بمؤاسات البؤساء.

ثم ردَّ الرجلُ ورقته الصفراء إلى جيبه، وألقى على الأرض متاعه، وأسند إلى الحائط عصاه، وانتحى ناحية النار وجعل يقول: ولا أخالكَ تكلفني على ذلك أجرًا؟ فأجابه صاحبه وهو يحاوره لا بلْ فاحفظ عليكَ دراهمكَ فلسنا في حاجةٍ إلى شيء منها. وكرهَ العابدُ الخوضَ معه في مثل هذا الحديث، فحولَ مجراه قائلًا: ولعلكَ يا سيدي مَقْرورٌ فإن ليلتنا باردة الهواء، فتمشى السرور في قلبِ الرجل حينما استأذنت تلك الكلمة على سمعه، وتنزهت لها روحهُ من داخل الجسد، وأصابت منه تلك اللفظة «سيدي» مواقع الماء من ذي الغلة الصادي.

ولا يزالُ المصاب في شرفه على ظمأ إلى نهلة من موارد الاحترام حتى إذا ظفر بها أصبح مبرودَ الغليل.

وانتقلَ العابدُ من حديثه إلى مخاطبة الخادم فقال: أرى سراجًا مريض الفتيلة ضئيل النور، فألمت بقصده، وأسرعتْ إلَى مخدع نومه وعادتْ تحمل شمعدانين مِنْ فضة ووضعتهمَا على المائدة.

فقال الرجل للعابد: لقد أكرمْتني الكرامة كلها، وحادثتني محادثة القرين، وجلستَ معي على بساط المساواة على أنني لم أكتمك شيئًا من أمري، وعندي أنَّ ما فعلتَ معي لكثير على مثلي. فقال العابدُ: لم تكن الدارُ بداري، ولكنها دارٌ للمسيح، ولا يسأل هذا الباب داخله كائنًا من كان عن اسمه، ولكن يسأله عن ألمه، وأنتَ رجلٌ قد أضرَّ بك الألمُ، ونال منك الجوع والظمأ، فالتجأتَ إلى تلك الدارِ وليسَ لي في ذاك

من فضل، وإنما الفضل لله فهيا إلى المائدة فقد حضر الطعامُ، فأخذ الرجلُ عليها مجلسه وجلس إليه العابدُ يؤاكله ويؤانسه حتى فرغ من أكله، وحانت ساعة الانصراف إلى النوم، فأخذ بيده إلى المضجع الذي هيأه له، ومرَّ في طريقه على حجرة العابد، فنظر فيها نظرة ألمت بجميع ما بداخلها، وحين بلغ به ربُّ الدار مضجَعهُ حيَّاه وهمَّ بالانصراف، فتعلق به الرجل وزمهر في وجهه بعينين نمَّ إنساناهما[1] عما كانَ يخفيه في قرارة نفسه من الغدر فقال له وقد شبك ذراعيه ووقف أمامه وقفة تمشي لها القلوبُ في الصدور: وما يؤمِنك أن لا أنالك بسوء وقد جعلتني بحيث لا يحولُ بيني وبين الفتك بك حائلٌ؟ فأجابهُ العابد: ومتَى أغنَى الحذرُ عن المرءِ شيئًا، وهذا أمرُ الله قد فرغَ منهُ.

ثم غادَرهُ وانكفأ إلى مخدعه، ولم يلتفت إليه، وبعد أن قضى فيه صلاته تحول عنه إلى البستان، وأخذ يطوفُ في نواحيه وهو يتأمل في ذلكَ الفلكِ وقدرة الصانع، ويطلقُ الفكرَ في تلك الأشياء المستترة في ضمير الدُّجَى.

أما الرجلُ فما صدَّقَ أن يتوارَى عنهُ حتى أهوى إلى السراج فأطفأهُ وانطرحَ على ذلك السرير وليس به حراك وغط في نومه، وما كادَ ينصرمُ من عمر الليل نصفُهُ، حتى انقلب العابدُ إلى مخدعه وأخذ مضجعه فيه ونام، ولم تبق في هذه الدار عَيْنٌ، ولم يأخذ النوم بمعاقد أجفانها، ولما اكتهلَ الليلُ أو كاد تيقظ الضيفُ من نومه وقدْ آن أنْ نسطر للقراء تاريخ ذلكَ الرجل.

كان «جان فالجان» من أسرة رقيقة الحال تعمل في الأرض ببلدة «بري»، وكان أبوهُ يشذبُ الشجر، ولم تكن له حرفة سواها، فتربى هذا البائسُ في معهد الجهل، فلم يجلسْ إلى مؤدب ولا معلم، ولم يرتضع لبانَ العلوم والمعارف، فمرَّ فدمًا[2] جهولًا، ولم يفع ورث عن أبيه تلك الحرفة، وكان طويل التفكر عن غير حزن، وفقد أبويه وهو صغير، فماتت أمه محمومة، ومات على أثرها أبوه، هوى من رأس شجرة كان يشذ بها فدق عنقه، فاحتضنته أخته وكان لها سبعة من البنين والبنات، فلم يزل مكفي المؤنة عندها حتى مات زَوْجُهَا وليس بين ولدها كاسب، وأكبرهم يومئذ في الثامنة من عمره، فلم ير «جان فالجان» بدًّا من القيام بمعاشها وأولادها، فجعل يعمل لبطنه وبطونهم، ويكدح في طلب الرزق وأجره في أيام موسم حرفته لا يزيد على ثمانية عشر صلديًا، فإذا انقضتْ تلك الأيامُ انطلقَ إلى جماعة الحصَّادين في المزارع فأصاب رزقًا له ولأهل بيته، وما زال يكافحُ الأيام ويناضلُ البؤوس وهو لا تصلُ يده إلا إلى ما تدعو إليه الحاجة لحفظ الحياة حتى نزلت بهم سنة من السنين حبس شتاؤها

---

(1) إنسانا العين: حدقتاهما.

(2) الفدم: ثقيل الفهم غبيٌّ.

الناسَ عن الخروج في طلب وجوه الرزق، فأملق الرجل[1] إملاقًا شديدًا، ونزلتْ به الضائقة، وحضره العوَز، فأمسوا ذات ليلة ولم يجدوا ما به يتبلغونَ، فصاحتْ تلك السبعة الأطفال من ألم الجوع، والتصقت بطونهم بالظهور من فرط الطوى، فكبر الأمرُ على «جان فالجان»، وغادر الدار وخرج هائمًا على وجهه يطلب لهم ما يقتاتون به، فمرّ بخباز قد أغلق حانوته وتهيأ للنوم في مخدع له بداخلها، وكان بابها من زجاج، وخلفَهُ حواجزُ من الحديد ينفذ من أثنائها الساعدُ، فوقفَ أمامه ونظرَ من زجاج الباب فإذا رغفانُ الخبزَ على قيد ذراع منهُ، وذكَر أمر الغلمة فساقَهُ قائد الاضطرار إلى ارتكاب جريمة السرقَة لأجل أن ينزعهم من مخالب الجوع فصدعَ الزجاج بقبضته، وأهوى بيده إلى الخبزِ، وإنه ليحاول اختلاسه إذ أدركَهُ الخبازُ، وقد تنبه من نومه مذعورًا على دوي تلكَ الصدمة، فتخبل الرجلُ في أمره، وطرح الخبزَ وأخذَ يعدو طالبًا للنجاة والخبازُ على أعقابه حتى لحقَ به وتعلقَ بأثوابه، وقد خدشَهُ الزجاج في يده، وساعدَه خدوشًا كانت هي الشهود على جريرته، فسيقَ إلى المحاكمة، وكان كلفًا بالصيد في الغابات، مدمنًا لحمل بارودته، فلما قَبضُوا عليه وكان محتقبًا لها[2] شبه لهم أنه بعض خطفة الصيادين، وهم قوم قد مقتهم الشعب لوهم ديني رسخ في عقيدته، فهو يلحقهم بقطاع السبيل، لذلك وفّوا هذا البائس قسطه من الأذى وزجُّوا به في السجن خمس سنين.

وفي اليوم الذي نُودِي فيه بنصْرِ «ديمونتبوت» كان «جان فالجان» يرسف في قيوده وقد سلكوه مَع رفقة له في سلسلة طويلة الذرع وساروا به إلى سجن «تولون» وقلبه يقطرُ حزنًا على هؤلاء الذين خلفهم بعده لا ترعاهم عين ولا تواسيهم يد.

ولما وصل إلى السجن ألبسوه ملابس المجرمين، ولم يبق له أثر من ماضيه حتى اسمه فقد محتهُ يد الشقاء وأصبح لا يدعي بغير نمرة 24601.

ولا يعلمُ إلا الله ما الذي حَلَّ بعدَهُ بتلكَ الأرملة وأولادهَا، وقد خلّفهم على مدرجة من سُيول الحوادث، يعبث الجوع بأحشائهَم، ويلعَبُ اليأس بأرواحهم، وليس لهم من معين ولا نصير، وقد ركب كل منهم رأسه وهام على وجهه من فرط الجوع، وتغلّل في ظلمات هذا الوجود ولحقَ بمن ابتلعتْهم تلك الظلمات منَ البؤساء، وتشتتوا في البلاد، وجرَّ عليهم الدهر ذيل النسيان فنسيهم حتى ذلَك السجين في سجنه، أنسَاهُ إياهم كرُّ الغداة ومرُّ العَشي وتَتابُع البلاء وتوالى الشقاء، ولم يجر على لسانه ذكر أخته في أيَام بؤسه، وما ذكرها غيرَ مرة، وقد نقل إلى بعضهم طرفًا من خبرها بعد أن لبث في السجن بضع سنين لا يعلم من

(1) أملق الرجل: أنفق ماله حتى افتقر. (2) احتقب الشيء: حمله خلفه.

أمرها شيئًا: نُقلَ إليه أنهُ رآها بمدينة «باريس» تُساكنُ البؤسَ في دار ولم يبقَ لها من أولادها غير واحد، وقد انقطعَتْ إلى العمل في إحدى المطابع، فنظرها وهي مبكرة إليها وفي يَدها ولدَها، وقد بلغَ الرابعةَ من عمره، وكانت في دار المطبعة مدرسة للأطفال، فأدخلت فيها ذلك اليتيم، فهي تغدو به كل يوم إليها وتتركه في فناء الدار حتى تحين ساعة الدرس، وكانت تنطلقُ لمزاولة العمل في المطبعة قبل هذا الحين بساعة، فيلبثُ ذلك اليتيم في فناء الدارِ وحيدًا فينزوي في ركن من أركانهَا، ويتوارَى تحتَ ذيْلِ الانكسار، وطالما شاهدَهُ من مرَّ به وهو يقصْقصُ من البردِ وفي عينيه كسلُ الكرَى، وقد تأخذُ حارس الباب الشفقَة عليه فيدعوهُ إلى كنّه حتى يفتح باب المدرسة.

هذه هي المرةُ الأولى التي سمع فيها بذكر أخته، وآلمته ذكرى تلك الأنفسُ التي كان يحبها ولكنه ما لبثَ أن عاد إلى حاله من النسيان، فقد كانَ في قلبه جرح لفراقهم وقد اندمل ذلك الجرح لطول العهد واشتغاله بما هو فيه من العذاب والشقاء.

وما كادَ يطوي أجلُ السنة الرابعة حتى وقفَ عليه الدورُ في الهروب فأفلت من السجن، وقد أعانهُ رفاقه على ذلك وكانوا قد تمالئوا فيما بينهم على الفرار بالتعاقب، ولما ظنَّ نفسه ناجيًا لبث يومين هائمًا في فضاء تلك الحرية الموهومة لا يهتدي إلى سبيل.

ولم يستمرئ ذلك البائس لذة الإطلاق والحرية، ومتى كان حرًّا من باتَ مقلقلَ الشخصَ، مروّع العين، منزعج الضمير، طاوي الحشا، يفرقُ من الفيء، ويفزع من لا شيء، يخيفه الليل تسطو غياهبه فتنسج على بصره غشاوةً تمنعه عن التحرز من الوقوع فيما عساهُ أن يكون قد مدَّ له من الشِّرَاك، ويزعجه النهارُ يغري به الرقباءَ ويهدي إليه العيون، فهو ما مر به طير إلَّا فزع، ولا نبحَهُ كلبٌ إلا جزع، ولا دقت ساعةٌ ولم يدق لها قلبه، ولا لاحَ شبحٌ ولم يطر له لُبُّه، فإذا أغفى سَلَّتْ عليه سُيُوفَهَا الأحلامُ، وإذا تيقظَ راشت إليه سهَامَهَا الأوْهَامُ.

فما زالَ يذوبُ فرقًا بينَ تلك الهواجس والوساوس، حتى سَلَّمهُ ظلامُ الليل إلى ظلام السجون غرثان[1] ظمآن لم يصب في يومه كسرة من الخبز ولا شربةَ من الماءَ، وقد امتدتْ أعوامُ سجنه إلى ثمانية بعد خمسة، فدخل السجن وثوبُ شقائه قشيب جديد بعد أن كان خلقًا رديئًا، وقد كان غادرَهُ ولم تبق له فيه إلا سنة واحدة وعاد إليه وقد ولدت له تلك السنة ثلاثًا!

وما زالَ يعالجُ الهروبَ فلا يسرح الفرصة إذا عرضت، ولا يحجم عن الدور إذا آنَ

(1) غرثان: جوعان.

وهو كلما ظن أنهُ ناج أدركه عَثار الجدِ فرده إلى السجن، ومدَّ في أجلِ بقائه فيه، حتى قطع على تلك الحالُ تسعة عشر حولاً.

وخرجَ من السجن وهو لمعول الحوادث صفًا صلدٌ لا تنال منه النوائبُ ولا تأخذ منه الآلامُ بعد أن كان ذلك الرعديد[1] الهلوع دخل فيه وهو بادي اليأس جزوع، وخرج منه وهو كظيم.

وما كان «جان فالجان» خبيثًا ولكنه كان قَدمًا جهولاً على أنه ما لبث أن تلقن في مدرسة الدهرِ العليا دروسًا ألحقته بمصاف الحكماء، قام بتهذيبه فيها أساتذة الأيام والليَالي، فَعلمه القيدُ السكون، وعلمته الأغلالُ الصبرَ كيف يكون، وأرشدهُ قرع العصَا إلى الاستقامة، وسقاه التعب والنصَبُ مرارةَ الندامة، وانتزعت مضاجع الخشب من جنبيهِ ذلك الطمع، وصهرتْ حرارةُ الشمس ما كان في نفسه من الجشع.

فجلسَ إلى نفسه يحاسبها، وجرّد من نفسه حكمًا على نفسه، وجعل ينظر إلى ماضيه نظرة الحكيم العاقل، إلى ضلالة الأحمَق الجاهل، فعلم أنه أتَى أمرًا نكرًا، وأن ماَ نابَهُ من القصَاص لخليقٌ أن يحلَ به، وقال في نفسه: لقدْ كانت لي مندوحةٌ عن السرقة، فلو أني سألتُ الناسَ هذا الخَبزَ لما أبوا عليَّ إعطاءَه، ولو أني أخذتُ بالأناة في الأمر لوجدتُ لي منصرفًا عن ارتكاب هذا العار إما بالسؤال وإنْ كان ذلاً، وإمَّا بالعمل وإن كان عزيزًا ولكني تعجلتُ وكان الأخلَقُ بي أنْ أعتصم بحبْلِ الصبر.

فمن النزر أن يموت المرءُ جوعًا على أنه ما خلق إلا ليعيشَ بين السعادة والشقاء، فإن كانَ نصيبهُ في الحياةِ الألم كان حقيقًا باحتماله، وإنْ عظم فما كُلُّ ألم يكونُ للموتِ رائدًا.

فلقد عققتُ نفسي، وعققتُ تلك الأرملة وأولادَها، وحاولتُ الفرارَ من وجه البؤس، فواجهتُ النار، وإني وإنْ زَلَّتْ بي القدم فلستُ بأول الخاطئين فهذا سبيل كل مضطر عديم.

ولا أزالُ أرى أنهم نظروا إلى هذا الجُرْم من غير وجه فأكبروا الفعل وأفرطُوا في العقاب، وأخذُوا جانبَ شريعتهم في القصَاص، ولم يأخذُوا جانبَ المجرم في الرحمة، ونظروا في ميزان حُكمهم إلى كفة الجزاء، ولم ينظروا في كفة العفو عند التوبة. فلسوفَ يُسألونَ عن تلك الحظوظ التي رموا بها في مجرى النحوس، وتلك الأنفس التي ألقوا بها في يدِ البؤس والشقاء.

وإني لا أرى موازنةً بين الضرر الذي لحق بصاحب الخبز وبين الضرر الذي نزل

---

(1) الرعديد: الجبان.

بي من وراء ذلك الحكم، فإنه وإن لم يأت من طريق الظلم فقد جاء من طريق القسوة والإفراط. وكان «جان فالجان» يُحاكمُ نفسَهُ وهو واجد على تلك الهيئة الحاكمة، وقد أخرجَهُ حنقه عن حدّ الرشد، ولقد يكون الحنق جنونًا.

وما ظنُّك أيها القارئ برجل لم يُصبْ من ذلك المجتمع الإنساني خيرًا، ولم يأنس منه غير هذا الوجه العبوس الذي كان يكمن في أثنائه ذلك العدل الموهوم، فهو مادنا منه دان إلا ليدني إليه أذاه، ولا مسه إنسان إلا ليمسه منه الضر، ولا طرقت أذنه بعد موت أبويه كلمة تستروح منها روائح الرفق، ولا وقع عليه نظرٌ تمازجه الرحمة.

فما زالتْ تهادي به الخطوبُ، وتقاذف به الآلام، وهو يتململ على سيال البلوى حتى أيقن أنَّ الحياةَ حرب، وأنهُ وحده هو المهزوم فيها، وأن ليس لهُ ما يعتد به من السلاح غير ما أمسكه في نفسه من الحقد على العالم بأسره، فهو سلاحهُ الذي أعدَّهُ لمناوأة الأيام ومنازلة الأنام، وكان يشحذهُ في أيام سجنه، ويبالغ في الحرص عليه، وقد رأى أنَّ قوة ذلكَ السلاح لا تكون إلا في قوة الذكاء، فعمد إلى الدخول في مدرسة السجن، وقد تفتق العلومُ بعض الأذهان إلى استنباط وسائل الأذى وطرق الانتقام.

وبعد أنْ فرغَ من الحكم على نفسه وعلى العالم بأسره انتقل إلى الحكم على تلك القوة التي دفعت هذا العالم إلى فعل الشر، وكان بقاؤه في السجن تلكَ المدة الطويلةَ وهو يرزح تحت أثقال الهموم يسمو بنفسه آنًا إلى السماء ويهبط بها آنًا إلى الأرض، فيرى عن يمينه نور اليقين، وعن يساره ظلام الشك، ولم يكن ذلك الرجل خبيثًا عند دخوله إلى السجن، ولكنه أحسّ بسريان الخبيث في نفسه حين جلس للحكم على هيئة العالم، وشعر بدبيب الكفر في قلبه حين جلس للحكم على تلك القوة السماوية.

وهنا يجبُ أن يقفَ بنا التأمل برهةً ونتساءلُ هل يدخل في باب الإمكان أن يخرج الإنسان من طباعه دفعة واحدة فيخالف غريزتَه ويناقضُ نحيزَته[1] ويتحول عن جبلته وينزع عن سجيته؟

وهل لبني البشر سُلطَان على النفوس يحولها عن الفطرة التي جُبلت عليها فيردَّ منها إلى الخباثة ما فطر منها على الطيِّبة؟

وهل يرتبطُ شقاء الحظوظ وعثار الجدود بفساد النفوس فإذا حمق حظُّ المرء وَلَجَ به عثار جده خبثت نفسه وساءت فعاله؟

وهل يخضعُ القلب لسلطانِ الحوادث خضوع الأعضاء فتدعوه إلى الاستكانةَ أمامها كما يدعو العبء الثقيل الظهورَ إلى الانحناء؟ وهلْ لا يوجد في نفوسِ

(1) النحيزة: الطبيعة والسجية.

البشر نورٌ سماوي لا يذهبُ بسنائه الشكُّ ولا تطمسهُ الضلالةُ فيبقى ساطعًا في تلك النفوسِ يفجُّ منه نور اليقين وتنبعث منه أشعةُ الهدى؟

تلك أسئلةٌ يدرك الحكماءُ عندها الحصر، ويعجزُ الباحث في علم الأعضاء عن الإجابة على أخيرها، فلو أنهُ نظرَ «جان فالجان» وهو في سجن «تولون» وقد وافت ساعةُ الراحة من عناء الأشغال فانتقل من ألم الجسم إلى ألم الفكر لرأى رجُلًا يقطر حزنًا ويذوب كمدًا، يزدهيه الصمتُ ويغوص به الفكر في بحار من التأمل، أنشبتْ فيه الشرائعُ أظفارَ الظلم، فجعلَ ينظر إلى العالم بعين الحقد والحرد وأخرجته المدينةُ عن حدّ الرحمة، فجعل ينظر إلى السماء بعين السَّخَط ولرأى مَريضًا داءُهُ في النفس لا في الجسد، وقد عزَّ عليه الشفاءُ، ولوقفَ علمه عندَ حد التوجع له، ولصرفَ نظره عن تلك القروح التي تسكن في هذه النفس المجروحة بسهام الشرائع الجائرة.

ولرأى رأيَ ذلكَ الفيلسوف «دانتي» فعمدَ إلى محو كلمة الأمل التي رسمتها يد القدرِ على جباه البشر.

ويا ليتَ شعري أكانَ يحسُّ ذلكَ البائسُ بذلكَ الوجدان الذي نحس به لهُ؟ وهل سَمَتْ مداركه إلى معرفة كنه ذلك الشقاء الذي أتيح له؟

ولما حانَتْ ساعةُ إطلاقه من القيود، ورن في أذنه قولهم له: إنكَ حُرٌّ منذ اليوم دبت في نفسه الحياةُ، وشعرَ بأشعة من الأمل تمحو من ظلام ذلك اليأس الذي سكن في نفسه منذ تسعة عشر حولًا[1]، ولكنهُ ما لبث أن عاودته نزواتُ الألم حين علم أن إطلاقه سيكون مشفوعًا بتلك الورقة الصفراء، وانقبضَ لتلك الجولة من الفكر وجه أمله وأيقن أنهُ لا زالَ في قيد لا تصل يده إلى صدعه، وأنَّ هذا الحكم قد وكل به زبانية من العذاب فهو في أسر السجون مثله في تلك الحرية الموهومة لا تزال تكلؤه عين البؤس والشقاء.

وأخذَ يفكر بعد ذلك في الثروة التي جمعها أيام محنته مما كان يصيبه من الأجور على عمله في السجون فظنَّ أنهُ أصبح ربًا لثلثمائة وثلاثين غرشًا، ونسَى أن أيامَ العطلة من كل أحد وما يلتحقُ بها من أيام المواسم قد قرضت من رأسِ ماله ستة وتسعينَ غرشًا، فلمْ يطرحْ من حسابه ذلك القدر العظيم، ولا تسل عما حَلَّ بنفسهِ من الجزع حين ألمَّ بهذا الخسار، وذلك الغبن المبين.

وفي اليوم التالي ليوم تسريحه من السجنِ مَرَّ بمدينة «كراس» على معمل من الأزهار به قوم يعملون وكانوا في فقر إلى المعونة لعدم الفسْحَة في الوقت وطلب سرعة الإنجاز في العمل فعرضَ على ربِّ المعمل نفسه فألحقه بأولئك العملة.

---

(1) الحول: السنة والعام.

وكانَ «جان فالجان» لا يعرفُ التعبَ ولا يألفُ المَلال فعكف يعمل بخبرة ومهارة، وسأل في أثناء ذلك عن الأجر الذي يصيبه العامل في يومه فقالوا له ثلاثونَ صلدياً، ولكنَّ ربَّ المعمل لم ينقده على عمله غير النصف حين علم أنهُ يحملُ تلك الورقة الصفراء.

فقال «جان فالجان» في نفسه: تلك هي الخطوةُ الأولى في سبيل هذه الحياةِ الجديدة، وهذا كله ببركة تلك الورقة الصفراء. فلعنة الله على كل ذي لون أصفر غيرَ الذهب.

فإني وإن كنتُ قد نجوتُ من السجون فلا أظن نفسي ناجيًا من جَوْرِ ذلك الحُكْم.

هذا ما حلَّ به من الغبنِ في مدينة «كراس» ولم ينسَ القارئُ ما أصابه في مدينة «ديني».

ولما كان السَّحَر تيقظ الضيف من نومه أيقظهُ لينُ الفراش ونعومةِ الملمس، وقطع عليه غرارة ذلك السرير الذي لم يكن له به عهد منذَ عشرين حولاً، وقد حنَّ جنباه إلى مضاجع الخشب واشتاق رأسه تلك الوسادة من القش، وكان قد هجعَ ثلثا من الليل فسرى عنه التعبُ، فهبَّ وقد عاودَهُ النشاط، وكانتِ عادته أن لا يهجعَ إلا قطعًا من الليل، فلما تنبهَ أخذَ ينظرُ يمنة ويسرة ثم أهوى برأسه إلى الوسادَةِ وجعل يعالجُ النوم مِنْ جديد.

ومَنْ قضى يومه بين الألم والاضطراب، ثمَّ أخذَ مضجعه بعد ذلك كان النومُ إلى الحلول بمقلته أسرعَ منه إلى سواه، ولكنه إذا تيقظَ فقلما يجد النومُ إلى عينه سبيلاً.

كذلكَ كانَ «جان فالجان» فقدْ استعصى عليه النومُ وأدركَـهُ الأرق، وانتابته الهواجسُ والأفكار، وجعل يتنقل به سيالُ الفكر من مكان إلى مكان، وقد مرَّت أمامه تلك الحوادثُ الغابرة مرور الصور المتحركة، وهو كلما نزلت برأسه فكرة أدركتها على الأثر أختها فلا تفتأ تطاردها حتى تغلبها على مكانها، فما زال رأسُه مسرحًا لسوانِح الأفكار، وميدانًا لسوابق الأوهام، حتى نزل به فكر فألقى فيه عصا التسيار، وأقسم لا يبرح أرجاءه وكان مبعثه من تلك الأواني الفضية التي لمحها ذلك الشقي على مائدة العابد عند تناول العشاء، ولمح الخادم وهي تضعها في أحد الأركان من مخدع نومه على مقربة من سريره.

فسولت له نفسه أن يذهبَ بها، وقد قوَّمها بضعْف ما كانَ يملكهُ يومئذ من المال، وكلما حاول أن يُثني عَنانه عَنْ ركوب طريق العارَ أبَى طَمَعه إلا أنْ يقفَ به على رأس تلكَ الطريق، فلبث ساعةً وهو يحاربُ تلكَ العَزيمة ويكافحُ شيطانَ هذه النفس الخبيثة حتى تغلبَ عليهِ الطمعُ، وزين له الشيطان اختلاس تلك الأواني فثار من مرقدِه، وهمَّ

بمزاولة ذلك العمل. ثم عاودَهُ الترددُ، فجلس على سريره وهو من نفسه في حرب عوان، ومد يده فتحسس متاعه والتمسه في الظلام، فمسح عليه بيده وقد كان على قيد ذراع منه، ومن رآه وهو على هذه الحال في جوف تلك الحجرة تحت أستار ذلك الظلام رأى رجلاً خرج به فرط التأمل عن حد الشعور بما حوله، وقرأ على وجهه سطورًا من الشؤم رسمتها عليه يد الشر الذي كان يجول في نفسه.

ولولا أن دقت ساعةُ الحائط فانتشلتهُ من فرار تلك اللجة التي نزل به إلى قعرها غواص الفكر للبث كذلك حتى الصباح.

فثارَ من مكانه وخلعَ نعليه وكان لم يخلعهما عند النوم، والتمس عصاه، واحتقب متاعه وتهيأ للعمل وأخذ سمته إلى مخدع العابد، وعلق أنفاسه وأخمد صوت أقدامه، ومشى على أطراف أصابعه حتى إذا بلغَ البابَ تسمع فلم يسمع شيئًا، فدفعَهُ بطرف البنان وهو أشد ما يكون احتراسًا كأنه هرَّةٌ تحاول غشيان ذلك المكان، فلانَ لهُ البابُ، ودار على عقبه بحركة لم يَسْرِ إلى السمع صوتٌ لها.

فلبثَ غير بعيد ودفعه دفعة ثانية كان فيها أشد جراءة منه في الأولى فازدادَ لينًا حتى فتح له طريقًا يسع مروره لولا منضدة من الخشب كانت معرضة فيه قد دعته إلى طلب الزيادة في انفراجه، فألم «جان فالجان» بحرج الموقف، ولم يرَ بدًا من الإقدام، فدفعَ البابَ مرة ثالثة أشدَّ من أختها، وكان البابُ على ظمأ إلى قطرات مَن الزيت، فصرَّ لتلكَ الصدمة صَريرًا[1] دوّى لهُ في هذه الظلمة صوت جافٍ، فاحتوتهُ الرعدةَ، وكادتْ تقفُ ضربات قلبه من الهلع، ولبثَ كمن أخذتُه الصيحة وقد نُفِخَ في الصُّور، ومثَّلَ له الفزع ذلك الباب وقد تحوَّل إلى كلب عقور رابَهُ سوادٌ مقبل فجعلَ ينبح نبيحًا يكفي لإيقاظ أهل الكهف فكيف بأهل ذلك البيت؟ وظنَّ أنهُ لا محالةَ هالكٌ، وخال عروقه وهي تنبض في صفحتيه مطارق تطرق الحديد، وأن أنفاسه تصفر صفير الرياح في بطون الكهوف والمغاور، وأنَّ ذلكَ الباب قد زلزلَ الأرض زلزالها، فزعزع أركان المنزل، وأن هذا الصوت النكير قد أنذر الناس بالكبسة، فما هو إلا أن ينتبه العابدُ وهاتان المرأتان حتى يقع في قبضة العسس فيعيدوه سيرته الأولى.

ولبث حيث كان لا يقدر على الحركة وهو كأنه بعض الأنصَاب، حتى سكت عنه الروع ورأى الأمر أيسرَ مما كان في نفسه فمدَّ بصره داخل الحجرة فإذا العابد يغطُّ في نومه، وأصغى بأذنيه فإذا الدارُ في سكون الرمُوس[2].

فخفض من جزعه، ودعا إليه الأقدام، وخطا خطوة، فإذا هو داخل الحجرة فجعل

(1) الصَرُ: شدة الصياح. وهو سماع الصوت بَدويٍّ وارتفاع. (2) الرموس: وهو القبر.

ينقل أقدامه باحتراس كراهة أن يصطدم بشيء من الأثاث وإنه ليختلس الخطى إذْ برز القمر من وراء غمامة كانت تغشاه، ورمى جرمه على تلك الحجرة فأنارها، فنظر «جان فالجان» نفسه على قيد شبر من سرير ذلك النائم.

وكأن الطبيعة لم تزحزح هذا النقابَ عن وجه القمر في تلك الفترة إلا لتوضحَ لعيون الكون عمل ذلك الجاني لعله يَذّكرُ أو يخشى، فلقد كان القمرُ منذ زمن لا يتعدى شطر الساعة مقنعًا بغمامة سوداء، وقد انجلتْ عنهُ في اللحظة التي أوشك فيها أن يعثرَ هذا الشقي بأعوادِ السّرير.

ومَنْ رأى ذلكَ المضطجع على فراشه رأى رجلًا قد قامَ على رأسه حارسَانِ من المهابة والجلال يتألقُ في وجهه نورُ اليقين ويجولُ في مُحيَّاهُ ماء البَشر، وترتسمُ على وجهه آياتُ الرضا والقبول، وتكتسي شفتاهُ بابتسامةِ الأملِ الفسيح، ويتأرَّجُ[1] مِنْ أردانه ريح التوكل.

ولقدْ راع هذا الواقفُ جلالَ ذلك الموقف، فجعل ينظرُ بعين الإكبار إلى ذلك الجسد الذي سكنَ فيه التقى، وتلك الروح التي باتت تسنح في عالم الأسرار وتسبح في ذلك الملكوت السماوي.

وكانت لله مشيئة في ذلك الراقد فقد أفاضَ عليه من أنوار الهدَى ومنحهُ من آيات المهابة والجلال مَا جعلَهُ مهيبًا في اليقظة والمنام، لذلك كان «جان فالجان» وهو مقيد في مكانه بقيد من الخشية ينظرُ إليه وقد تمشت العظةُ في نفسهِ، وامتلأتْ عينهُ جمالًا وأفعَمِ صدرهُ جلالًا.

ولا يعلمُ إلا الله ما كان يمتزجُ بأجزاء نفسه من الانفعال وهو يدمنُ النظر إلى ذلك الراقد الذي تنتشر على وجهه طبقةٌ من النور السماوي تمازجها نفثة من الروح الإلهي الذي أنارَ الله به بصيرته وأضاء سريرته فتلألأ في وجهه، والوجهُ مرآة الضمير.

وزادَتْ بهجةُ البدر في بهجة ذلك النائم فكان يراهُ «جان فالجان» في نور فوق نور، ولم يزلْ واقفًا في مكانه، ولم يحول بصره عنه وما شكَّ من رآه في أنه يتردّد بينَ أن يهوي بعصاه إلى تلكَ الجمجمة فيشجها أو يهوي بفمه إلى تلك اليد فيقبلها.

كل ذلكَ والعابدَ غارق في نوم، ولم تقطعه عليه تلك النظرات المريبة حتى حانت من «جان فالجان» التفاتةٌ فرأى الصليبَ وهو باسط ذراعه وكأنه يومئ إلى أحدهما بالوقاية، وإلى الثاني بالمغفرة، فأغرته تلك اللفتة في الإسراع في العمل.

فاندفعَ يمشي إلى الأمام حتى وقف عند تلك الأواني الفضية وهي في سفطها

(1) يقال: أرج الطِيب وتارج فاح ريحه.

فتناوله ورجع أدراجه ومرّ بجانب السرير بقدم مطمئنة وجأش رابط، حتى إذا جاوزَ البابَ انحدرَ إلى الحديقة فألقى بالسفط على الأرض بعد أن نقلَ إلى خُرْجِهِ ما كان فيه وتسوَّرَ الحائط ونجا بنفسه وخرج مع البازي عليه سواد.

ولما توفَّى الليل النهار هبَّ العابدُ من نومه، وخرجَ يجولُ في حديقته وكانت تلك عادتهُ عند كل صباح فلمح الخادم وهي تهرولُ إليه، وهي تنادي أيعلَمُ تولى الله حراسته أينَ سفط الأواني الفضية؟

فأشارَ العابد إليه وكان مطروحًا على مقربة منه وقال: أليس هو هذا؟ قالت: كأنه هو، ولكن أين أوانيه؟ قال: هذا ما لست أدري فصاحت الخادم: كانَ الذي خفتُ أنْ يكون، فلقد فقدتُ تلك الأواني، وأكبرُ ظني أنَّ ذلك الرجل الذي غشيناه بالأمس هو الذي ذهب بها.

ثم طفقت تجري إلى حجرة الرجل وعادت على الأثر وهي تقولُ: نعم ذهب بها فلا بورك له فيها، ولاحت منها التفاتة فرأت آثارَ أقدامه مطبوعة على أرض البستان فجعلتْ تترسمها بالنظر حتى انهتْ بها إلى إحدى زواياه فشاهدتْ آثار تسلقه الحائط فقالت: مِنْ هُنَا أخذَ طريقَهُ ومِنْ هُنَا ظهر الحائط.

وما زالتْ تبدي وتعيدُ وسيدها صامت اللسان وما زاد على أن قال: ومتى كنا نحنُ أصحابًا لتلك الأواني؛ ألم تكن هي من نصيب الفقراء وقد حبسناها عنهم، ولقد أصاب الرجل في فعلته فإن هو إلا أحدهم، وقد وقف به نصيبه عليها، فلا تجزعي فليس في الأمر ما يدعو إلى الجزع، وهذه أواني القصدير أو صفحات الخزف تكفينا مؤنة الأسف على ضياعها.

ثم غادرها وانكفأ إلى حجرته، ومَا كادت تحتويه حتى سمع قرعًا على الباب فقال أتيتَ أهلًا أيها المبكرُ، فانفتح الباب وظهرَ على عتبةِ الدار ثلاثةٌ من الرجال قدْ أخذُوا بخناقِ رابع منهم.

فمدَّ العابدُ بصره فإذا ثلاثتهمُ من الجنْد وإذا صاحبه بالأمْس يكاد يذوب بينهم فرقًا[1]. فقال لصاحبه وقد هبت من شمائله روائح الكرم: لقد نسيتَ عند انصرافك عنَّا أنْ تقرن هذين الشمعادنين إلى تلكَ الأواني الفضية، وأنتَ تعلمُ أنك ربها منذ الأمس. وما أنساكَ أن تذكرها إلا شيطانُ العجلة. فخذها فلعلك أنْ تصيبَ مِنْ ثمنها ما تصلحُ به مِنْ شأنِكَ.

ثم التفت إلى الجند وقال لهم لقد آذيتموني في ضيفي إنه خير مما تظنون.

---

(1) فرقًا: خوفًا شديدًا.

والتفت بعدها إلى صاحبه فقال له والبشر يجول في محياه: إذا شئت زيارتنا منذ اليوم فلا تجعل طريقك على البستان فإن لك لمندوحة عن احتمال مشاق الصعود والهبوط وهذا بابنا لا يغلق في وجه الطارق وما هي إلا أن تدفع الباب حتى تكون في وسط الدار. ولما تم انصراف القوم قال له لقد جعلت لي عهد الله أن تنفق ما أخذت في رياضة نفسك على البر والتقوى فلا تنكث مع الله عهدك. فلبث الرجل مبهوتًا عند سماع ذكر ذلك العهد الذي لم يأخذ على نفسه القيام به فقال له العابد اعلم أنني اشتريت نفسك بعد أن سللتها من يد الهلاك ثم وهبتها الله فلا تكن عليها من المسرفين. وخرج الرجل من المدينة كمن يحاول الفرار ومضى على وجهه تقاذف به الطرقات وتهادي به الحقول ولا يشعر لفرط ما نزل به أكان يقبل أم يدبر ولا يعلم أنه كان يضرب في قطعة من الأرض ولا يتعداها.

وهكذا قضى سراة يومه هائمًا في أودية التيه والضلال ولم يشعر بألم الجوع وإن كان لم يذق طعامًا فسار وهو يكاد ينشق غيظًا ولا يعلم إلا الله على أي شيء قد أمسك هذا الغيظ في نفسه ولعله سرى إليه من ندامته على ماضيه أو من خذلانه في حاضره وكأنه كان يحس برقة قد أدركت فؤاده وأخذت تقرض من أطراف غلظته فتضعضع نفسه كما شعر بانزعاج تلك الغلظة التي أسكنها في فؤاده ذلك الظلم الثابر وأيدها فيه هذا الجد العاثر وجعل يتساءل في كل آن عما عساه أن يحل محلها ويؤثر العودة إلى السجون على البقاء على تلك الحالة التي لا يعلم ما أتاها.

وكان على عطفي طريقه سياج تطل منها أزهار وقد أخطأتها أيدي الجناة فجعلت تهيج فيه ذكرى الصبا كلما تنسم منها ذلك الأرج الفياح الذي لم يكن لهُ عهد به منذ ابتدأت أيام محنته. وقد بلغت من نفسه تلك الذكرى ما لم يبلغه البؤس والشقاء وكذلك قضى يومه على غير استواء.

ولما كان الأصيل وقد رسمت الشمس على سطح الأرض ظلال الحصى كان «جان فالجان» مضطجعًا في جوف خضراء ليس فيها سواه وقد مر برأسها وقد مر برأسها طريق معبد ينتهي بمدينة «ديني» تلك التي لاقى فيها صنوف الشقاء.

وإنهُ ليفكرُ في أمره وفي تلك الأسمال التي كانت مثارَ النفور لكل من يراها إذ أحسَّ بوقع أقدام، فاستوى جالسًا فإذا هو يرى سوادًا مقبلًا فتبينه فإذا هو غلام يعد من العمر اثنتي عشرةَ سنة، وهو يحتقب جُرَّةً لهُ، ويحمل حيوانًا صغيرًا جعله وسيلةً لرزقه، وقدْ شهد ما كان عليه من الأطمار البالية بعرافته في الفاقة، وهو يغني بصوت رخيم، ويلاعب الجوَّ بقطع من الفضة كانت مبلغَ ثروته في حياته.

فإنهُ ليلهو بقذفها في الجو والتفافها إذْ هوت كُبْراها إلى الأرض وأخذت تجري على قطرها إلى حيث كان «جان فالجان» مستترًا عن نظرِ ذلك الغلام خلفَ تلك العواسِج[1].

فما هي إلا أن انتهت إليه حتى كان أسرع من السهم في ممره إلى وضع قدمه عليها ليحجبها عن نظر ربها الذي كان يحرصُ عليها حرصَ الموت على النفوس، ويترسمُ أثرها بنظرٍ يكادُ ينهبها وهي تجري على الأرض نهبًا.

ولما علمَ بمقرها وثبَ إليه فإذا هو يَرى عندها رجلًا فلم يأخذه الروع ولم يعتره الدهش.

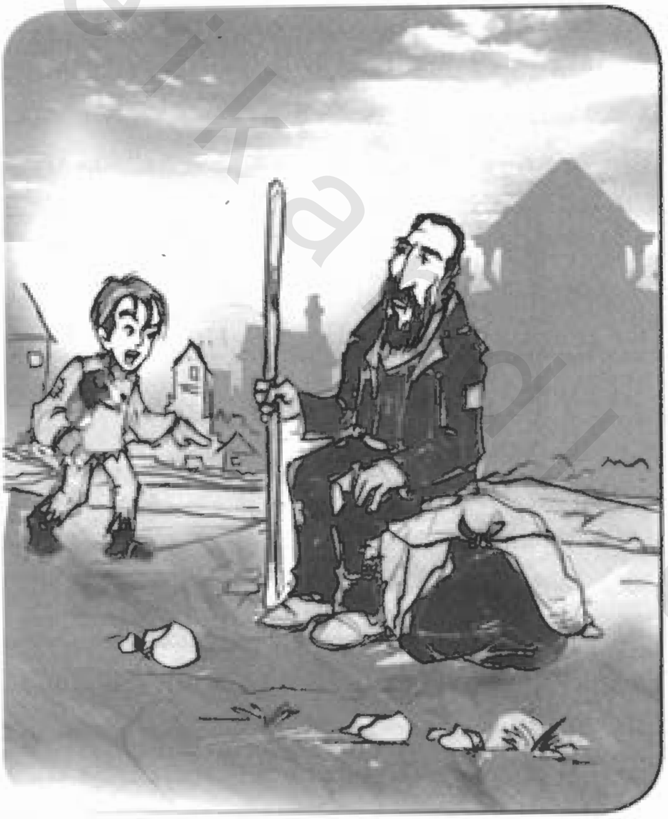

وكان الطريقُ إذ ذاكَ خاليًا من المارة ولا يسمع في هذا الجو الفسيح إلا قطقطة[2] سرب من القَطَا تسبح في الجو على قيد مرمَى السهم.

فوقفَ الغلامُ في وجه الرجل وقد ألقى الشرق[3] في شعر رأسه سُلوكًا ذهبيةً ونشرَ على سحنة ذلك الفاتك طبقةً تعلوها حُمْرَةُ النجيع[4]، وقال له بصوت يمازجه ارتياح الغلمة وسكينة الأبرياء: أينَ قطعتي؟ فمد الرجلُ بصرَهُ إليه وقال: من أنتَ؟ قال: أنا «فوجي» الصغير.

---

(1) العوسج: نبات له شوك، ويقال للشجر الكثيف.

(2) صوت القطا. (3) بمعنى الشمس. (4) بمعنى الدم.

obeikandl.com

فانتهرَهُ الرجلُ، ونكسَ رأسه، وتصامَّ عن سماع كلامه، وأخذ الأول يلحف في السؤال، والثاني يبالغ في السكوت حتى ضاق الغلام ذرعًا، وأهوى إلى ذلك الشيخ وأخذ بمجامع طوقه وجعل يعالج تحويل قدمه عن تلك القطعة الفضية.

فزمهرَ الرجلُ في وجهه، ومد يدَهُ ليلتمسَ عصاه، فأثارتْ تلك الحركة نخوةَ الغلامِ فأغلظَ في القولِ حتى أحفَظَ[1] ذلك الشيخ فثارَ من مكانه وإهابهُ يكاد يتمزق غيظًا، وصاح به إن لم تنج بنفسك فلا نجوت بها بعد اليوم.

فارتاع الغلامُ لوعيد ذلكَ الفاتك وأطلقَ للريح ساقيه وجعل يعدو ولا يلوى حتى غابَ سواده وقدْ غابت الشمسُ.

ولبثَ الرجلُ في مكانه حتى سقطتْ عليه غياهبُ الظلام وهو غائصٌ في لجج من الأفكار وكأنهُ كان ينظرُ إلى أصل شجرة كانت هناك، وقد وقفَ نظره عليها ولم يتحول، ولولا قشعريرة سرتْ في جسمه من قرةِ ذلك المساء لما عاد إلى نفسه من غيبوبة هذا الفكر الطويل، ولما أحسَّ بوخز القرّ همَّ بالتحوّل عن هذا المكان فأصلح عليه أثوابه وانحنى ليأخذ عصاه فأخذ نظره تلك القطعة الفضية، وقد كادتْ تسوخ في الأرض فاحتوته الهزة وجعل يغمغم ويهذي وكأن أجفانهُ قد شدَّت إلى تلك القطعة بأهدابها وكأنما هي عينٌ ترميه بنظرات تخترق أحشاءه.

ومرَّت عليه فترةٌ وهو على تلك الحال، ثم أخذ يغالبُ اضطرابه حتى ثاب إليه السكونُ فاندفع إلى الأمام وانقضَّ عليها انقضاض القضاء.

ولمَّا صارتْ في يده أخذ يستقرئُ بنظره ذلك الفضاء، ويدور بعينه في أرجائه وما شك من رآه وهو على تلك الحال في أنه ضار من الوحش يلتمس مربضًا يستكن فيه على أنهُ ما كانَ يرى في تلك الأنحاء إلا ضبابًا قد أعارهُ الشفقُ لونه الوردي، وقدْ مدَّ الظلامُ على الأرضِ رواقًا يقصر فيه قاب العين.

فشرعَ في السرى، وقد لبس الدُّجَى وتغلغلَ في هذا الفضاء وطفقَ يهرول في مشيته، وركب تلكَ الطريق التي نجا منها ذلك الغلام المغبونُ، وما هو إلا أن خطا فيها بعض الخطوات حتى وقف بغتةً ورفع عقيرته ينادي باسم ذلك الغلام رجاء أن يسمعه فينقلب إليه، وكان يتسمع فلا يسمع شيئًا فما زال يعدو ويصيح وقد ابتلع هذا الظلام شخصه، ومزق ذلك السكون صوته حتى يأس من لحاقه.

ولو كان الغلام بحيث يسمع ذلك الصوت النكير لما سكنَ إلى إجابته، ولضاعف من عدوه وبالغ في اختفائه طلبًا للنجاة من غائلته.

---

(1) أغضب.

وإنَّ اليأس لينهَبُ فؤادَه نهبًا إذا بصر بشبح يخوص في أحشاء هذا الليل البهيم فدناه فإذا به رجل يحمل إشارةَ الرهبان وقد امتطى جوادًا فاستوقفه وسأله بلهفة الحائر ألم تعتر في طريقك أيها الراهب بغلام صغير؟ فقال: كلا. قال الرجل: إني أنشد غلامًا فقيرًا وأحسبه يُدْعَى «بفوجي» قال: لم أرَ أحدًا، فضرب الرجل بيده إلى جيبه وانتزعَ منه قطعتين من الفضة وقال للراهب: خُذْ هاتين وأنفقهما في سبيل الله، وفي مؤاساة ذوي المَتْرَبة[1] وإنني أدعوك بالله أنْ تقودَني إلى السجن فأنا بعضُ المجرمينَ فما كادتْ تستأذنُ هذه الكلمات على سمع الراهب حتى همزَ جوادَهُ فمرّ به مرورَ الطيف، وغادرَ ذلك البائسَ في مكانه، وهو كأنهُ بعض الأنصاب، فلم تكن إلاَّ لحظة حتى استأنف السَّرى، وطفق يعدو ويصيح كأنه خُولطَ في عقله، وجعل كلما مرَّ بجذع أو بشجرة مَثَّل لهُ الوهم أنهُ يرى إنسانًا جاثمًا أو واقفًا فيعطف عليه عطفة المستخبر عن ذلك الغلام!

كذلك كانت حالُه حتى بلغَ مكانًا تلتقي عندَهُ سُبُلٌ ثلاث، وقد درجَ القمرُ منْ حجْر أمه، فجعلَ يدعُو باسم الغلام وصوتُه يذهبُ في هذا الفضاء، وقد انقطعَ عنَ إجابته كل شيء حتى الصَّدَى، فعجزَ عن التماسك، وانحلت عزائمه، وقد ناءَ به كلكل القضاء، فسقط على حَجَر هناك وقال وهو مكب برأسه على ركبتيه: «أشهدُ أني بائس».

جالَ الدمعُ في عينينِ لم يسبح إنسانهما فيه منذ عشرينَ عامًا وكأنه كان ينبعُ من ذلكَ القلب الذي صَدَّعَتْهُ الخطوب.

***

خرجَ هذا الرجلُ من عند العابدِ وقد علمنا ما كانَ من أمرهِ وأنهُ لم يكن لهُ من نفسه ما يحاسبهُ على عمله.

فما وَجَدت العظاتُ إلى قلبه سبيلًا، ولا كانَ لتلك الأخلاق الفاضلة سلطانٌ على أخلاقه، ولا وَصَل ذلك القولُ الكريمُ إلى فؤاده، ولا ظفرت حكمةُ العابد بعلاج تلك النفسِ التي نفرت من الهدى نفارها من طبائعَ الأبرار وتحصنت في معقل من الضلال، لا تبلغه العظمة، ولا تعمل فيه الزواجر.

وكانت رنةُ تلك العظات لا تزالُ تفتق طَبْلَتي أذنيه فيقع في نفسه منها ما يقع، فيبالغ في صدّها، وتبالغ فَي كيده، حتى أوشكت أن تأتي على قوة الشَرِّ فيه، وتستل من قرارة نفسه ذلك الحقد الكمين.

وقد بدأ يشعرُ في هذه المرةِ بأن صفحَ العابدِ عن زلته كان طليعةً لكتائب المقادير

---

(1) المتربة: الفقر.

التي خذل أمامها عناده، وأنه ليجني على نفسه إن هو أبي إلا الإصرار على ذلك العناد والحفاظ، والتمسك بذلك الحقد الذي وقره في صدره على جنس البشر، وقد وجبَ عليه أن يخرجَ من تلك الحرْب إما قاهرًا أو مقهورًا، تلكَ الحربُ التي قامتْ بين نفسين، نفس اتخذت من تقوى الله جندها، ونفس جعلت حزب الشيطان حزبها!!

ولما تعذّرَ عليه المخرج، وضاقَ به الأمرُ، ثارَ من مكانه وأخذ بسري على ضوء ذلك النور أوشك أن ينير سريرته. ويا ليتَ شعري هل كانت تعاودهُ إذ ذاك ذكرى تلك الليلة التي قضاها في مدينة «ديني»؟ وهل كان يسمع صوت ذلك الهاتف السماوي الذي باتَ ينذره بعقباه ويكَل له الخيار بين خلتين، إما نزوع عن الغواية فسمو إلى مقام الأبرار، وإما استرسال في الضلالة فهبوط إلى قرار الفجار، ويوضح له سبيل الحياة بين أمرين، إما سعادة دونها سعادة ذلك العابد، وإما بؤس خير منه بؤس المصفد في السجون؟

وسبيلهُ في الأولى أن يحلل بحرارة التوبة ما علقَ بأجزاء نفسه منْ بقايا ذلك الشرّ فيصبحَ مَلَكًا نقيًا، وفي الثانية أن يلوثها بحمأة الغيّ والضلالِ فيُمْسِي طريدًا شقيًا.

وهنا نفتح المجال لتلك الأسئلة التي عرضناها على القارئ منذ العهد القريب، ولا زلنا نقول إنَّ الخطوب تفتق الأذهان، ولكنا لا نعلم علم اليقين أكان لها أثر حتى اليوم في فؤاد ذلك الرجل ولعلها كانت تحضره في حين اضطرابه فتزيده حيرة وخبالا!!

فلقد أحدثَ في نفسه صنع الجميل على أثر خروجه من السجن وقرب عهده بالشقاء ما يحدثه الضوءُ الباهرُ وقد قرعَ عينًا حديثةَ العهد بحالك الظلام.

ولما تجلتْ لهُ تلكَ الحياة الجديدة في أعلى مجاليها، وتراءى لهُ آتيها يَرْفُل في ثياب البهجة والبهاء، أزعجهُ ذلك المرأى فلم يستطع فيه صبرًا وقد بهر نور الفضيلة ذلك البائس، فرد منهُ الطرف وهو كليل. وما كان «جان فالجان» اليوم هو ذلك الغصوب الذي سلب الغلام قطعته بالأمس وغلبه على أمره، ولا هو بصاحب تلك الفعلة الشنعاء. وإنما صاحبها هو ذلك الحيوانُ المفترس الذي دفعتهُ الفطرة الوحشية إلى ارتكابها بينا كانت نفسه تسبحُ في سماء تلك الحياة الجديدة التي أكبرتها. فلقدْ فعلَ بالغلام ما فعل مسوقًا بقوة الشر التي مزجتها بأجزاء نفسه مخالطته للأشرار في أيام سَجنه ولا يدري أغيًّا كان يفعل أم رشادًا!!

وحين أنست عينه بذلكَ النور، وسكنتْ نفسه إلى صحبة التقى، وردت إلى طبعها رد الحسام[1] إلى قرابه، علم أنه أتى عظيمًا وارتكبَ جسيمًا، فكادت تتزايل أعضاءه رهبةً، وتسيل نفسه جزعًا.

---

(1) الحسام: اسم من أسماء السيف.

وفعلتْ به تلك الصدمةُ فعلها، ومزقت ذلك الغشاء الذي نسجته على بصيرته أيدي الخطوب، وفصلت في نفسه بين الحق والباطل، فعلت بالأول وسفلت بالثاني كأنها ذلك الجوهر الكثاف الذي يلقى به في المزيج ليباعد بين أجزائه، فتراه وهو يطفو[1] ببعضها، ويرسب ببعضها الآخر.

وقبل أن يلم بما ألمَّ به أو يدركَ مأتي تلك الحال التي وصل إليها طفقَ يجري خلف ذلك الغلام ليرد إليه ما سلبه إياه حتى إذا يئس من لحاقه، وقف ينظر إلى ماضيه فأنكرت نفسُهُ نفسَهُ.

أنكرتْ نفسهُ الجديدة تلك النفس التي صحبته منذُ عشرينَ عامًا، وشُبِّهَ لهُ أنه في عالم الأحلام وأنه يرَى أمامه طيفًا يمثل له إنسانًا، قد نحست طلعتُه، ولؤمتْ غريزته، وخبثت طينته، قد قبض بيده على عصًا وحمَّل ظهره حقيبة ملؤها السلب، وقد كتبتْ يد البؤس على جبينه ذلك الاسمُ الممقوتُ «جان فالجان».

وخرج به هولُ ذلك الموقف عن حد الإدراك، فرسخَ في نفسه أنه يرى ذلك الشبح رأي العين وأنه يرى أمامه «جان فالجان»، فجعل يقابلُ بينه وبين ما يرى، وكأنه ينظرُ في مرآة قد رقَّ ماؤها.

وإنهُ ليجرعُ كأس الغضاضة من يد تلك المقابلة، إذ لمح ضوءًا سرى في جوف ذلك الليل فحسبهُ للوهلة الأولى ضوء مصباح، ولكنه ما لبث أن رآه ينمو ويتشكل في صورة البشر حتى كمل إنسانًا سويًا، ثم أخذ يدانيه شيئًا فشيئًا حتى تبين فيه وجه ذلك العابد، وما هو إلا نور الفضيلة قد تمثل في صورة الرجل الكريم، فجعلَ ينظرُ بعين البصيرة إلى هذين التمثالين القائمين أمامه، ويقف بنظره على العابد تارة وعلى «جان فالجان» تارة أخرى.

وبدأ يتضاءلُ أمام عينه تمثال ذلك الجاني حتى انمحَى رسمه، وبقي العابدُ وحده في ذلك الهيكل النوراني!!

فراعَ الرجلُ جلالَ ذلك الموقف، تزاحمتْ دموع الرهبة في عينيه على الخروج.

فما زالَ ينتحبُ انتحابَ الطفلِ ويبكي بكَاءَ الثكلى، حتَى سطعَ من خلالِ دموعه فجر الحقيقة، وبزغت على أثره شمس تلك الحياة الجديدة التي لم يستمرئ لها لذة قبل اليوم، وتراءتْ لهُ صحيفة أعماله وقد سجلت فيها مخازيه، فجعل يقرأ فيها

(1) **يطفو: يعلو.**

سطور ماضيه، فنظر جريمته الأولى وعلى يمينها التوبة والاستغفار، وتمثلت لهُ غلظة قلبه وفظاظة طباعه، وذلك الانتقام الذي أضمره للناس في يوم تسريحه، ثم رأى كل ما اقترفه على العابد وما جناه على الغلام.

كل أولئك كان عليه مسطورًا، ووجد ما عمل حاضرًا ولا يظلم ربك أحدًا.

فسرّى وهو مأخوذٌ بهذا الوجدان الجديد، ولا يدري له وجهة، حتى إذا أفجر[1] وعاد إلى رشده رأى نفسه راكعًا على عتبة ذلك العابد.

(ذكرنا في المقدمة ما كان لفكر ذلك المؤلف من سرعة الانتقال وقلنا إنا بينا نراه يسابح الأجرام في أفلاكها إذا هو يدارج النمالَ في مدابّها.

ولقدْ سرت عدوى ذلك الانتقال من فكره إلى يراعه. فإني لأعاني من تعريب ذلك الكتاب ما أعاني إذا به قد انتقل طفرًا من خط تلك العظات إلى الخوض في السياسة.

ولا بدعَ فقد كان حامله كثير التطلع إلى فلك السياسة دائب الرصْدِ لأجرامه، مسلس العنان لجواديه فكره ويراعه.

فما كاد يأتي على ذلك الفصل السابق حتى تدفق في سرد حوادث سنة 1815م فملأ صحيفتين بأسماء لم يجر لها ذكر من قبل، ولن يكون لها حديث من بعد، فرأينا أن نغفل ذكرها، وأحببنا أن يكون الكتاب غفلًا من تلك الأحاديث المبتورة التي لم يكن لها أثر في غير ذهن واضعها، وإن القارئ ليخرج من قراءتها وما في يده شيء منها ما لم يكن ملمًّا بحوادث تلك السنة، واقفًا على تاريخ هذه الأمة، ومن لنا بمثل ذلك القارئ الخبير).

(1) افجر الرجل إذا أدركه الفجر.